﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ [الانفطار: 1 - 5]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الترابطُ الموضوعيُّ والإيقاعيُّ بينَ سورَتَي التَّكويرِ والانفطارِ

تَظهَر مُناسَبَةُ أوائلِ سورةِ الانفطار مع خاتمةِ سورةِ التَّكوير، في أنَّها جاءت تَتِمَّةً لمَشهَدِ الانقلابِ الكَونيِّ وبَعثِ الخلائقِ بأسلوبٍ موازٍ، ولكن بتصويرٍ جديدٍ لمظاهرِ الهَولِ، يُستَكمَلُ به ما ابتدأته سورةُ التكوير من مَشاهدِ القيامةِ.

ولمّا ذُكِرَ في ختام سورةِ التكوير قولُ الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨﴾ [التكوير: 27 - 28]، أي: إنَّ هذا القرآنَ تذكِرةٌ تدعو إلى الاستقامةِ؛ جاءَ صَدر سورةُ الانفطار؛ ليصُبَّ في الغَرَضِ نفسه، بذكرِ مشاهدِ هذا يومِ الجزاءِ العظيم، الذي يحمل التهديدَ والإنذارَ الشديدَ للإنسان الغافلِ عن مَصيره في يوم القيامة، المُعرِضِ عن الاستِقامَةِ في الحياةِ الدُّنيا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱنفَطَرَتْ﴾: (فطر) أصلٌ يَدُلُّ على فتحِ شيءٍ وإبرازه[1]، ومنه الفَطْرُ، وهو الشَّقُّ، ويُطلَق على الانفلاقِ والانصداعِ، وقَيَّده بعضُهم بأنّه الشَّقُّ الأوّل، والجَمعُ (فُطور)، وهي الشُّقوق والصدوع، وفي التنزيل العزيز: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣﴾ [الملك: 3][2]، وفَطَر الله الخَلْق، أي: خَلَقَهم على غيرِ مثالٍ سابقٍ، وابتدأ صَنْعة الأشياء،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: فطر.
(2) الزبيدي، تاج العروس: (فطر).

كأنّه شقَّ ظُلمةَ العَدمِ بإيجادِهما[1]، ويُقالُ: (فَطَرْتُ الشيءَ): شقَقْتُه[2]، وانفطرَ الثَّوْبُ، وتفطَّر، أي: انشقّ، وتَفَطَّرتِ الجبالُ والأرض: انصَدَعَت[3].

2) ﴿ٱنتَثَرَتْ﴾: (نثر) أصلٌ يَدُلُّ على إلقاءِ شيءٍ مُتَفَرِّق[4]، فالنَّثْرُ هو تفريقُ الشَّيءِ المتماسِكِ أو المنظومِ على وجهِ التبعثُرِ والتساقُطِ غيرِ المنتظم، والنَّثْر: رَميُكَ الشيءَ بيَدِكَ متفرِّقًا[5]، فيُقالُ: (نَثَرتُ الدُّرَّ)؛ إذا فرَّقتَه بعد أن كان منظومًا في سِلكٍ[6]، ويُقالُ: (نَثَرَ الريحُ الغُبارَ)؛ إذا ذرَته، وبدَّدَته، وانتشرَ، فمعنى انتثارِ الكَواكِب في الآية: تساقطَت، وتفرَّقَت، وتناثَرَت من مواضِعِها في السماءِ على غيرِ نظامٍ، بعد أن كانت مُنضَبِطَةً بمَسارٍ محدَّدٍ، ومَربوطةً بقوانينَ مُحكَمةٍ.

3) ﴿فُجِّرَتْ﴾: (فجر) أصلٌ يَدُلُّ على الشَّقِّ الواسع والسَّيَلانِ والانفجارِ بقوّة، يُقالُ: (فَجَّرْتُ الماءَ)، أي: شقَقْتُ الأرضَ حتى سالَ منها الماءُ بوفْرَة، و(التفجيرُ) إطلاقُ الشيءِ المحبوسِ؛ ليتدفَّقَ بغزارة، فقولُه تعالى: ﴿فُجِّرَتْ﴾ يُفيدُ أنَّ البِحارَ قد شُقَّت أرجاؤُها، وتدفَّقَ ماؤُها.

4) ﴿بُعْثِرَتْ﴾: (بعثر) أصلٌ يدلُّ على تفريق الشيء المُستَقِرِّ أو تَقليبُه بلا نِظام[7]، يُقالُ: (بعثر الشَّيء)، أي: فرَّقَه، وبدَّده، و(بَعْثَرْتُ المتاعَ)؛ إذا قلَّبتَ بعضَه على بعض، وأخرَجْتَ ما فيه[8]، و(بَعثَرَ الأرضَ): شقَّها، وأثارَ ما تحتها، فالمرادُ ببَعثَرَةِ القُبورِ في الآية: قَلبُها وإثارتُها وإخراجُ ما فيها.

5) ﴿قَدَّمَتْ﴾: (قدم) أصلٌ يَدُلُّ على السَّبقِ والإرسالِ أمامَ الشَّيءِ، فالقُدُمُ ضِدُّ الأُخر، بمنزلة قُبُل ودُبُر، ورَجُلٌ قُدُمٌ: مُقتَحِمٌ للأشياء يتقدَّمُ الناس، ويمضي في الحرب قُدُمًا؛ ومُقدَّمٌ نقيضُ مُؤَخَّر، ويُقالُ: (قَدَّمَ الشَّيءَ)، أي: أرسلَهُ أمامَهُ، أو فعَلَهُ مُبَكِّرًا[9]،

(1) الخليل، العين: (فطر).
(2) ابن سيده، المُحكم: (فطر).
(3) الخليل، العين: (فطر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: نثر.
(5) الخليل، العين: (نثر).
(6) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (نثر).
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بعثر).
(8) الزّبيديّ، تاج العروس: (بعثر).
(9) الخليل، العين: (قدم).

فمعنى ﴿قَدَّمَتْ﴾: ما أسلَفَتهُ النَّفْسُ من أعمالٍ في حياتِها، فأودعَتهُ في سِجِلِّها؛ ليكونَ بينَ يَدَيها يومَ الحسابِ.

6) ﴿وَأَخَّرَتْ﴾: (أخر) أصلٌ يَدلُّ على التَّراخي والوقوع بعد الشيء في الزمان أو في المرتبة، خلافَ التَّقَدُّم، يُقال: (أخّرَ الأمرَ)؛ إذا جَعَلَه في مَوضعٍ مُتَأخِّرٍ، أو أجَّلَه، ويُقال: (أخّرَ العملَ)؛ إذا لم يُبادِرْ إليه، وتَرَكَه[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَشاهِدُ الانفطار انهيارُ الكون، وانكشافُ الضَّمير

تَذكُرُ هذه الآياتُ مجيءَ يوم القيامة الذي ينفرط قبله عِقدُ نِظام الكَون، وتَختَلُّ موازينُه، بتغيُّر مَعالم الكَوْنِ كُلِّها، فتَنْفَطِرُ السَّماءُ، وتَتَبَدَّدُ نُجومُها كَأنَّها حَبّاتُ عِقدٍ، قُطِعَ سِلْكُهُ، وتُفَجَّرُ البِحارُ، فتَزولُ حُدودُها، وتَفيض[2]، وتَصيرُ ماءً غامِرًا، وتُقْلَبُ القُبورُ، فيَخْرُجُ مَنْ فيها لِلحِساب، عِنْدَئِذٍ يَجِدُ كُلُّ إنْسانٍ نَفْسَهُ مواجَهًا بأعْمالِه، فيُدْرِكُ ما قَدَّمَ مِنْ عَمَلٍ، وما تَرَكَ بَعْدَهُ مِنْ أثَرٍ، فالآياتُ تُصَوِّرُ بإيجازٍ مُبهِرٍ ما يَحدُث لِلكَون من انهيارٍ وانْكِشافٍ مَخبأ الأعْمالِ، وتُثْبِتُ أنَّ المَوْقِفَ لا مَفَرَّ مِنْهُ، فإنَّ النَّفْسَ سَتَعْلَمُ حينَئِذٍ - عِلْمًا لا يُمكِنُ لَها إنْكارُهُ - جَميعَ ما اقْتَرَفَتهُ، وما أهْمَلَتهُ، أو أخَّرَتهُ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بَراعَةُ المَطْلَعِ بأسلوب الشَّرْط:

تهويلُ المَقام، وتَشويقُ السّامِعِ لِما سيُذكَر

مِن بَديعِ صَنيعِ التَّعبيرِ القُرآنيِّ أن جاءَ مَطلَعُ هذِهِ السّورَةِ على أُسلوبِ الشَّرطِ المبدوءِ بـ(إذا) في تَوالٍ مُتَعاقِبٍ لِمَشاهِدَ مُروِّعَةٍ مِمّا يَقَعُ يَومَ القيامَةِ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾، فكانَ ذلِكَ مُؤْذِنًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخر).
(2) مجاهد، تفسير مجاهد، ص: 710.

بتَهويلِ المَقامِ، وتَشويقِ السّامِعِ لِما سَيَأتي بَعدَهُ، فإنَّ اجتِماعَ أربَعَةِ جُمَلٍ شَرطيَّةٍ مُتَواليَةٍ، كُلُّها تَفتَتِحُ بـ(إذا) يَربِطُ أجزاءَ الكلامِ رَبْطًا يَظهَرُ فيه شِدَّةُ التَّلازُمِ بَينَ فِعلِ الشَّرطِ وجوابِه، ويَمنَحُ السّياقَ تَوتُّرًا تَصاعُديًّا، ويُهَيِّئُ النَّفسَ لِلتَّأمُّلِ في عَظَمَةِ الحَدَثِ، فالافتتاحُ به مُشَوِّقٌ لِما يَرِدُ بَعدَها مِن مُتَعَلِّقِها، الذي هو جوابُ ما في (إذا) مِن معنى الشرط[1]، وهو افتتاحٌ مشابِهٌ لِما تَقدَّم في أوَّلِ سورة التّكوير.

يَؤكِّد ذلك أنّ جَوابَ الشَّرطِ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ جاءَ موجَزًا فاصِلًا؛ ليُفيدَ أنَّ تِلكَ التَّحوُّلاتِ الكونيَّةَ الراهبةَ كُلَّها؛ لِتَهيئَةِ مَشهَدٍ يَجِدُ فيهِ الإنسانُ نَفسَهُ في مَوضِعِ المُحاسَبَةِ، فأُسلوبُ الشَّرطِ هُنا جاءَ لِلتَّرتيبِ الزَّمَنيِّ والتَّمهيدِ النَّفسيِّ، فإنَّ (إذا) تُفيدُ وُقوعَ الشَّرطِ، أوْ تُؤْذِنُ بوُقوعِهِ، وتُرَتِّبُ الجَوابَ عَلَيْهِ[2]، فكانَ مِن بابِ تَشويقِ المُنتَظِرِ، وتَهويلِ المَصيرِ، مِمّا يَتَفَقَّهُ فيهِ التّالي، ويَرتَعِدُ لَهُ السّامِعُ.

نُكتَةُ اختيارِ (إذا) للشَّرْط:

جاءَ الشَّرطُ بالأداةِ (إذا) في قول الله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾؛ لأنّها تُستَعمَلُ لِلدّلالَةِ على وُقوعِ شَيءٍ في المُستَقبَلِ، ويَكونُ ذلِكَ الشَّيءُ في العادَةِ عَظيمًا أو هائِلًا، كَما قَرَّرَهُ المُفَسِّرونَ؛ فإذا جاءَ الخِطابُ بـ(إذا) في أوَّلِ السّورَةِ، كانَ فيهِ تَشويقٌ لِلسّامِعِ، وتَفتيحٌ لِقَلبِهِ لاستِقبالِ ما سَيَرِدُ بَعدَهُ، ولم تُستَعمَلْ (إن) الشَّرْطيَّة؛ لأنَّها تُفيدُ الشَّكَّ في وُقوعِ الشَّرْطِ، وترتُّب الجواب عَلَيه؛ بخِلافِ (إذا) فإنَّها تُفيدُ وُقوعَ الشَّرْطِ، أوْ تُؤْذِنُ بوُقوعِهِ، وتُرَتِّبُ الجَوابَ عَلَيْهِ[3].

تأكيدُ وُقوعِ الأحداثِ العَظيمَة، وتقريرُ الإيمانِ بيَومِ القيامَة

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 170.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/ 1331.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/ 1331.

وَتَكَرُّرُ (إذا) في أربَعِ جُمَلٍ على نَسَقٍ واحِدٍ يُفيدُ التَّراكُمَ في الهَوائِلِ، ويُصَوِّرُ الكَونَ، وقَد انقَلَبَ على وجهِهِ، فانفَطَرَتِ السَّماءُ، وانتَثَرَتِ الكَواكِبُ، وفُجِّرَتِ البِحارُ، وبُعثِرَتِ القُبورُ، فكَأنَّ الوُجودَ قَد انهَدَمَ.

نُكْتَةُ دُخولِ (إذا) على الأسماء:

تَحقيقُ المَشاهِدِ المُصَوَّرَةِ؛ لِتَأثيرِ المَعاني المُرَتَّبَة

دَخَلَت (إذا) في الآيات الأربَعِ الأولى من السّورة على أسماء: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾، والأصْلُ أنْ تَدْخُلَ على الفِعْلِ، مَعَ جَوازِ دُخولِها على الاسمِ بلا تَقديرٍ عِنْدَ الكوفيّين؛ وإنّما سَوَّغَ هَذا التَّركيبَ أنَّ المُرادَ لَيْسَ مُجَرَّدَ الشَّرْطِ الفِعْليِّ، بَلِ الإشارَةُ إلَى كَوْنِ (السَّماء) في تِلْكَ الحالَةِ مَظِنَّةَ انْفِطارٍ عَظيم، فكَأنَّهُ قيلَ: في زَمَنِ انْفِطارِ السَّماءِ، يَكونُ كَذا وكَذا... وهذا مِمّا يُفيدُ التَّشْويقَ والتَّرْهيبَ، ويُثيرُ في النَّفْسِ وقْعَ المَشْهَدِ المُرْتَقَب، حَتَّى إذا انْتَهَى السّامِعُ إلَى قَوْلِهِ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ كانَ ذلكَ كالصَّدْمَةِ التَّيْقيظيَّةِ لِما تَقَدَّمَ مِنْ وصْفِ تَقَلُّباتِ العالَمِ ومَظاهِرِ القيامَة.

وَهَذا شَأْنُ الجُمَلِ الَّتي أُضيفَ إلَيْها (إذا)، وكانَت جُمَلًا مُفْتَتَحَةً بمُسْنَدٍ إلَيْهِ مُخْبَرٍ عَنْهُ بمُسْنَدٍ فِعْليٍّ، دونَ أنْ يُؤْتَى بالجُمْلَةِ الفِعْليَّة، ودونَ تَقْديرِ أفْعالٍ مَحْذوفَةٍ قَبْلَ الأسْماء: أنْ تَكونَ لِقَصْدِ الاهْتِمامِ بالمُسْنَدِ إلَيْه، وتَقْويَةِ الخَبَر[1].

دَلالَةُ تَقديمِ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾:

إفادَةُ الاهتِمامِ بتِلْكَ الأخْبارِ المَجْعولَةِ عَلاماتٍ لِيَومِ القيامَة

تَقْديمُ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ على فِعْلِها ﴿ٱنفَطَرَتْ﴾، وكُلِّ مُسنَدٍ إلَيه على مُسْنَدِها في جُمَلِ الشَّرْطِ، مِنْ قَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾، جاءَ لِما في ذلك مِنْ تَوْجيهِ العِنايَةِ إلَى المُسْنَدِ إلَيْه؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 170.

تَعْظيمًا لِلشَّأْنِ، وتَهْويلًا لِلحَدَثِ الَّذي سَيَجْري عَلَيْها، فإنَّ انفِطارَ السَّماءِ أمرٌ جَلَلٌ، ومَظْهَرٌ مِنْ مَظاهِرِ انْقِلابِ نِظامِ الكَوْنِ، وقَدْ جَرَتِ العادَةُ في أُسْلوبِ العَرَبِ على تَقْديمِ المُسْنَدِ إلَيْهِ؛ إذا أُريدَ التِفاتُ النَّظَرِ إلَيْهِ، خُصوصًا في مَقامِ التَّرْهيبِ أوِ التَّفْجيعِ، وفي ذلك ما يُفيدُ أيْضًا مِنَ الإيماءِ إلَى أنَّ السَّماءَ، وإنْ كانَت في نُفوسِ النّاسِ رَمزًا لِلرِّفْعَةِ والثَّباتِ، فإنَّها لا تَثْبُتُ أمامَ أمرِ اللهِ يَوْمَ تَتَقَلَّبُ المَوازينُ، ويَنْقَلِبُ نِظامُ العالَمِ، وكَذَلِكَ القَولُ في الجُمَلِ الثَّلاثَةِ المَعْطوفَةِ على هَذِه.

دَلالَةُ التّعريف:

تَعظيمُ المَشْهَدِ وتَهْويلُه

في تَعريفِ لَفظِ السَّماءِ بـ(الـ) في قَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ دَلالَةٌ على العَهدِ الذِهنيِّ؛ فالسَّماءُ المَعروفَةُ في أذْهانِ النّاسِ - الَّتي تُظِلُّهُم، ويَرفَعونَ إلَيها أبصارَهُم - لا تَحتاجُ إلَى تَعريفٍ آخَرَ؛ لأنَّها مَعلومَةٌ ببَداهَةِ الإدراكِ، ويُمكِنُ أنْ تَكونَ مِنَ العَهْدِ الحُضوريِّ؛ لأنَّ السَّماءَ الدُّنيا حاضِرَةٌ مُشاهَدَةٌ مَحسوسَة[1].

وَتَعريفُ لَفْظِ السَّماءِ في هذا المَوضِعِ يُفيدُ التَّعظيمَ والتَّهويلَ؛ إذِ انفِطارُها لَيسَ بأمرٍ هَيِّنٍ، بَل هوَ نَقضٌ لِبِناءِ الكَونِ، وانهيارٌ لِما يَظُنُّهُ النّاسُ ثابِتًا لا يَتَغَيَّرُ، فالتَّعريفُ زادَ في رَهبَةِ المَنظَرِ، وأكَّدَ حَقيقَةَ الحَدَثِ؛ لأنَّهُ لَم يَقُلْ: (سَماءٌ)، بَل قالَ: ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾، فأشارَ إلَى المُشاهَدِ المَعلومِ، السَّقْفِ العَظيمِ، وجَعَلَ انفِطارَهُ هوَ البِدايَةَ لِما سَيَتلوهُ مِن تَغَيُّراتٍ كَونيَّةٍ، وهذا التَّعريفُ يُفيدُ أيضًا الإشارَةَ إلَى استِحضارِ صورَةِ السَّماءِ، كَما هيَ في أيّامِ الدُّنيا؛ ليَكونَ انفِطارُها في الخَيالِ أشَدَّ وقْعًا، فيَزدادَ الخَوفُ والتَّرَقُّبُ في نَفسِ السّامِعِ.

(1) ابن هشام، المغني: 1/ 49 - 50، والرضي، شرح الرّضي على الكافية: 2/ 147.

دَلالَةُ الإفْراد:

التَّوَسُّلُ بالإدراكِ البصريِّ إلَى التَّهويلِ الوِجْدانيّ

في إفرادِ السَّماءِ دونَ جَمعِها: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ غَرَضٌ بَلاغيٌّ يَتَّصِلُ بطَبيعَةِ التَّنزيلِ وسياقِ التَّهويلِ، فإنَّ السَّماءَ في العُرْفِ العَرَبيِّ لا يُرادُ بها عِدَّةُ سَماواتٍ مَحسوسَةٍ، بَل يُرادُ بها الجِهَةُ العُليا الَّتي تَظهَرُ فوقَ البَصَرِ، وهيَ الَّتي تَظهَرُ فيها السُّحُبُ والنُّجومُ والشَّمسُ والقَمَرُ، فهيَ في المَعهودِ واحِدَةٌ في النَّظَرِ، ومُفرَدَةٌ في الإدراكِ.

وَإنَّ القُرآنَ لَمّا أرادَ التَّخويفَ وتَصويرَ انقلابِ الكَونِ، جاءَ بذِكرِ السَّماءِ بالمُفرَدِ؛ ليُشيرَ إلَى الجِهَةِ المَألوفَةِ لِلنّاسِ، الَّتي يُرفَعُ إلَيها النَّظَرُ، ويَستَقِرُّ فيها التَّخَيُّلُ، فلَو قيلَ: (السَّماواتُ)؛ لَذَهَبَ الذِّهنُ إلَى المُتَعَدِّدِ الغامِضِ الَّذي لا يُحيطُ بهِ الوَصفُ، ولَكِنَّ المَقصودَ هُنا تَصويرُ انفِطارِ السَّماءِ المَرئيَّةِ؛ لأنَّهُ أبلَغُ في التَّهويلِ، وأقرَبُ إلَى الوُقوعِ في النَّفسِ.

بَلاغَةُ استِعمالِ مادَّةِ الانفِطار:

دقّةُ التعبيرِ عن أوَّلِ انهيارِ النِّظامِ الكَونيِّ قَبلَ يَومِ القيامَة

إنَّ اختيارَ فِعلِ الانفِطارِ في قَولِ اللّه تَعالَى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ اختيارٌ دَقيقُ الدِّلالَةِ، عَظيمُ البَلاغَة، فالانفِطارُ يَدُلُّ على بدايَةِ الانشِقاقِ بالتَّمَزُّقِ والانفِراجِ، والسَّماءُ في المَعهودِ هيَ القِبلَةُ العُليا لِلنَّظَرِ، ثابِتَةٌ، ساكِنَةٌ، ولَم يَأْلَفِ النّاسُ فيها تَغَيُّرًا؛ فإذا أُسنِدَ إلَيها فِعلٌ يَدلُّ على الانقِلابِ كالانفِطار، وهوَ مِمّا يوصَفُ بهِ الجِسمُ الضَّعيفُ إذا تَشَقَّقَ؛ كانَ ذلِكَ تَصويرًا لانهِدامِ النِّظامِ الكَونيِّ المَألوفِ في أقوَى مَعالِمِه.

دَلالَةُ صيغَةِ المُطاوَعَة:

تَزويعُ النّاظِرِ إلى انفِطارِ السَّماء

جاءَ الفِعلُ (انفَطَرَ) في قَولِ اللّه تَعالَى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ على صيغَةِ (انْفَعَلَ)، وهيَ صيغَةٌ تَدُلُّ على الوُقوعِ والانفِعالِ الذّاتيِّ، فمَعْنَى الفِعلِ ﴿ٱنفَطَرَتْ﴾ أنّ السَّماءَ انْشَقّت، وتَصَدَّعت ذاتيًّا، مِن

غَيرِ نِسبَةِ الفِعلِ إلى فاعِلٍ مُباشِرٍ في الظاهِرِ، وفي هَذِهِ الصّيغَةِ تَمحيضٌ لِنَظَرِ المُخاطَبِ إلَى الفِعلِ نَفْسِه؛ إيذانًا بِعِظَمِ الهَولِ، وتهويلًا لِمَشهدِ الانفطارِ.

وَفي استِعمالِ صيغَةِ المُطاوَعَةِ بَلاغَةٌ تَتَجَلَّى أيْضًا في تَصويرِ ما لا يُعهَدُ فيهِ الحَدَثُ - كالسَّماءِ - بما يُشبِهُ الكائِنَ الحَيَّ، فيَزدادُ المَنظَرُ هَوْلًا، ويَتَعاظَمُ في النَّفْسِ شُعورُ الخَطْبِ، فالتَّشخيصُ البَيانيُّ يُصَوِّرُ الجَمادَ بِصِفَةِ الفِعلِ والانفِعالِ؛ لِتَتَجَسَّدَ المَعاني، وتَحضُرَ في ذِهنِ السّامِعِ كَأنَّها مَرئيَّةٌ، وهَذا لَهُ وقعٌ بَيانيٌّ شَديدُ التَّأثيرِ، يُهَيِّئُ النَّفسَ لِتَلَقّي التَّغَيُّراتِ الكُبرَى يَومَ الدّينِ.

وَفي استِعمالِ المُطاوَعَةِ تَصويرٌ بَيانيٌّ لانفِعالِ السَّماءِ، كَأنَّها تَتَفَطَّرُ، وتَتَشَقَّقُ عَن قَهْرٍ، فهيَ حالَةٌ تُخالِفُ ما طَبَعَ اللّه عَلَيها السَّماءَ في نِظامِ الدُّنْيا مِنَ التَّماسُكِ والإمساكِ، وذلِكَ أبلَغُ في تَهويلِ المَشْهَدِ، وتَحويلِ النَّظَرِ مِنَ مَشهَدِ الجَمالِ الحاضِرِ إلَى مَشْهَدِ الرُّعبِ والتَّخْويفِ القادِمِ.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بصيغَةِ الماضي:

إنَّ التَّعبيرَ عَنِ الأحداثِ المُستَقبَلِيَّةِ بصيغَةِ الماضي - كانفِطارِ السَّماءِ في قَولِ اللّه تَعالَى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ - هوَ مِن أساليبِ العَرَبِ البَيانيَّةِ الَّتي يُرادُ بها تَصويرُ الحادِثَةِ الآتيَةِ في صورَةِ الواقِعِ المُنجَزِ، تَحقيقًا لِوُقوعِها[1]، وتَأكيدًا لِثُبوتِها، وزيادَةً في تَهويلِها؛ لذلك جاء التعبير به تعالى هنا - وإن كانَ مُتَعَلِّقًا بـ (إذا)، وهيَ أداةُ شَرطٍ في المُستَقبَلِ - لِيَتَلَقَّى السّامِعُ خَبَرًا واقِعًا لا يَحتَمِلُ التَّرَدُّدَ، وإن كانَ وُقوعُهُ في المُستَقبَلِ، فهوَ مِمّا لا مَحيصَ عَنهُ؛ لأنّه أمرٌ قَدَّرَه اللّه أزَلًا.

انفِطارُ السماءِ حقيقةٌ واقِعَةٌ لا تَقبَلُ الشَّكّ

(1) الرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 2/ 250.

واستِعمالُ صيغَةِ الماضي في الآية مِن بابِ تَجسيدِ المَعنَى وتَصويرِهِ في مَقامِ التَّخويفِ والإنذارِ، كَأنَّ النّاسَ يَنظُرونَ إلَى السَّماءِ، وقَد انفَطَرَت، فتَتَخَيَّلُ الأذهانُ المَوقِفَ، وتَشهَدُهُ.

تَوجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظيّ:

مُناسَبَةُ الانفِطارِ لِمَقامِ التَّرْويع

إنَّ التَّفاوُتَ في التَّعْبيرِ بَينَ قَولِ اللّه تَعالَى في سورَةِ الانفطار: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، وبَينَ قَولِهِ في سورَةِ الانشقاق: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ [الانشقاق: 1] مَبنيٌّ على التَّنويعِ في الأُسلوبِ بما يُناسِبُ سياقَ كُلِّ سورَةٍ، ويُحَقِّقُ مَقصِدَها التَّربَويَّ والتَّخويفيّ، ففِعلُ الانفِطارِ يَدُلُّ على شَقٍّ مَعَ تَمَزُّقٍ وتَفَطُّرٍ، كَما يُستَخدَمُ في شَقِّ القشرةِ أوِ الغلافِ، وفيهِ دَلالَةٌ على خَلَلٍ يَبدَأُ في البِنيَةِ ممّا يُنذِرُ بانهيارٍ شامِلٍ، أمّا فِعلُ الانشِقاقِ؛ فهوَ أقرَبُ إلَى مَعنَى الانفِصالِ والانقِسامِ، بلا ضَرورَةِ التَّمَزُّقِ؛ فهوَ أخَفُّ في الوَقعِ، وأقَلُّ في التَّهييجِ.

فلعلَّ مجيءَ الفِعلِ ﴿ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ [الانشقاق: 1] في بدايَةِ سورَةِ الانشقاقِ، التي تَتَضَمَّنُ تَفاصيلَ حِسابِ العِبادِ وعَرْضِ أعمالِهِم يَتَناسَبُ مَعَ سياقٍ أقَلَّ في التَّوبيخِ والتَّبكيتِ؛ بَينَما جاءَ الفِعلُ ﴿ٱنفَطَرَتْ﴾ في أوَّلِ سورةِ الانفِطارِ، التي في مَطلَعِها أهوالٌ مُتَتابِعَةٌ، تَتَضَمَّنُ انفِطارَ السَّماءِ، وانتِثارَ الكَواكِبِ، وتَفجيرَ البِحارِ، وبَعْثَرَةَ القُبورِ، وهوَ تَرتيبٌ يُراعي شِدَّةَ المَنظَرِ وتَراكُمَ الفَزَعِ، فكانَ استِعمالُ الانفِطارِ أوفَقَ بمُقتَضَى التَّصويرِ؛ لِأنَّ الفَطْرَ إظهارُ الحادِثِ بإخراجِهِ مِنَ العَدَمِ إلى الوُجودِ، فقَولُ اللّه تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ دَلَّ على إظهارِ ما لَم يَرَهُ النّاسُ من قَبْلُ مِنَ التَّبَدُّلِ في السَّماءِ، كَما قالَ تَعالَى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝٤٨﴾ [إبراهيم: 48].

التَّدَرُّجُ في عَرْضِ الأهْوال، وتَكْشيفُ مَراحِلِ انقِلابِ الكَوْن

نُكْتَةُ العَطْف:

في عَطفِ قَولِ اللّه تَعالَى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ على قَولِهِ

تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ نُكتَةٌ بَيانيَّةٌ دَقيقَة، هيَ إفادَةُ تَراكُم الأهوالِ، مَعَ تَرَتُّبِ المَشاهِدِ في تَصاعُدٍ يُراعي الانفِعالَ النَّفسيَّ في سياقِ التَّهويلِ والإنذارِ، فالسَّماءُ هيَ الغِلافُ العَظيمُ الَّذي تَستَقِرُّ فيهِ الكَواكِبُ، وإذا انفَطَرَ الغِلافُ؛ كانَ انتِثارُ ما فيهِ مُتَوَقَّعًا، فجاءَ ذِكرُ انتِثارِ الكَواكِبِ بَعدَ انفِطارِ السَّماءِ على وجهِ التَّرَتُّبِ الطَّبيعيّ، كَأنَّ الحَدَثَ الثّانيَ تَفصيلٌ لِما يَتَضَمَّنُهُ الأوَّلُ.

نُكتَةُ تَكرارِ (إذا):

إنَّ في تَكرارِ أداةِ الشَّرطِ (إذا) في كُلِّ جُملَةٍ مِن قَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ نُكتَةً بَيانيَّةً رَفيعَةً، هيَ إفادَةُ تَفصيلِ المَهاوِلِ، وتَهويلِ المَناظِرِ، وتَصعيدِ الوَقعِ في نُفوسِ السّامِعينَ؛ فلَو اقتُصِرَ على ذِكرِها في المَوضِعِ الأوَّلِ، وعُطِفَتِ الجُمَلُ بَعدَها بواوِ العَطفِ فقَط؛ لَذَهَبَ كَثيرٌ مِن الرَّهْبَةِ، ولاندَمَجَتِ المَعاني في بَعضِها، ولَما ظَهَرَت كُلُّ حادِثَةٍ في استِقلالِها وخُطورَتِها، فتَكرارُ (إذا) في كُلِّ جُملَةٍ يُفيدُ التَّجديدَ في المَعنَى، ويُثيرُ التَّرَقُّبَ لِما بَعدَهُ، فتَكونُ كُلُّ واحِدَةٍ مِن هَذِهِ الأحداثِ كَأنَّها طامَّةٌ وحدَها، مُستَقِلَّةٌ عَنِ الأُخرَى في الفَزَعِ والخَطَرِ.

استِقلالُ كُلِّ مَشهَدٍ بذاتِه، لِهَوْلِهِ وخُطورَتِه

وفي تَكرارِ (إذا) تَصديرٌ لِكُلِّ آيَةٍ بأَلِفِ المَدّ، مِمَّا يُناسِبُ فاصِلَةَ كُلٍّ بالرّاءِ المَفتوحَةِ ثُمَّ التّاءِ السّاكِنَةِ الشَّديدَةِ، فيَقَعُ كلُّ حَدَثٍ في نُفوسِ السّامِعينَ بصَدْمَتِهِ المُستَقِلَّةِ، فتَتَراكَمُ الصُّوَرُ في الذِّهنِ، وتَتَزاحَمُ، حَتَّى يَبلُغَ الوَعيدُ غايَتَهُ.

دَلالَةُ تَعريفِ ﴿ٱلْكَوَاكِبُ﴾:

جاءَ لَفْظُ ﴿ٱلْكَوَاكِبُ﴾ مُعَرَّفًا في قَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾؛ ليُفيدَ العَهدَ الذِّهنيَّ، أي: الكَواكِبُ الَّتي يَعرِفُها النّاسُ،

استحضارُ المَرْئيِّ المألوف لِتَعظيمِ اختِلالِ نِظامِه

ويَرَونَها في السَّماءِ لَيلًا، ويَتَّخِذونَها دَلائِلَ ومَواقيتَ ومَظاهِرَ جَمالٍ ونِظامٍ، فـ(الـ) في الكَواكِبِ لِتَعريفِ العَهْد، وتُشيرُ إلَى أنَّ المُرادَ هوَ ما كانَ مُتَعارَفًا في الأذهانِ، لا كَواكِبَ غامِضَةٌ أو بعيدةٌ غيرُ مَرئيَّةٍ، وهذا التَّعريفُ يُفيدُ تَفخيمَ المَذكورِ؛ لأنَّ الكَواكِبَ مِمّا يَتَمادَى فيهِ النَّظَرُ، ويَتَعَلَّقُ بهِ الوِجدانُ؛ فهيَ زينَةُ السَّماءِ، ومَوضِعُ التَّفَكُّرِ في عَظَمَةِ الخالِقِ.

وَرُبَّما أفادَ تَعريفُ الكَواكِبِ العُمومَ في الجِنسِ، باعتِبارِ أنَّ جَميعَ المَخْلوقاتِ مِن جِنسِ الكَواكِبِ قَدِ انتَثَرَت يَومَئِذٍ، المَرْئيَّةَ المَشهورةَ منها، وكَثيرَةً غيرَها مِنَ الكَواكِبِ البَعيدَةِ الَّتي لا تُدْرِكُها العَينُ المُجَرَّدَة، ولا آلاتُ النَّظَرِ في السّماء؛ تَنبيهًا على أنَّ جَميعَ ما كانَ يَسيرُ في الفَلَكِ، ويُهتَدَى به في اللَّيلِ قَد انقَلَبَ نِظامُهُ، فانتَثَرَ بَعضُهُ عَن بَعضٍ كَأنَّهُ حَبُّ عِقدٍ انقَطَعَ، فيَكونُ تَعريفُ الجِنْسِ هُنا تَعريفًا لَفظيًّا، وهوَ في مَعنَى النَّكِرَةِ، وفائدَةُ اختيارِ التّعريفِ - ممّا لا يُفيدُه التَّنكيرُ - استِحْضارُ الجِنْسِ المَعروفِ لَدَى النّاس، وإبرازُ هَيئَتِهِ المَعلومَةِ في الذِّهْن؛ تَمهيدًا لِلتَّهْويلِ بذِكْرِ انْتِثارِها[1].

بَلاغَةُ جَمعِ ﴿ٱلْكَوَاكِبُ﴾:

التَّهْويلُ والتَّعْميمُ والتَّناسُقُ البَيانيّ

آثَرَ القُرآنُ الكَريمُ التَّعبيرَ بجَمعِ ﴿ٱلْكَوَاكِبُ﴾ في قَولِ اللّه: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ - دونَ إفرادِها على الجِنسِ، كَأن يُقالَ: (وَإذا الكَوكَبُ انتَثَرَ) - لِنُكْتَةٍ بَيانيَّةٍ فذَّة، هيَ إفادَةُ التَّعميم؛ لأنَّهُ لا يُرادُ بهِ واحِدٌ مِن جِنسِها، بَل كُلُّ ما يَدخُلُ تَحتَ اسمِ الكَواكِبِ، كالكَوَيكِباتِ والأجرامِ التي هيَ على شاكِلَةِ الكَواكِبِ، كالأقْمارِ وغَيرِها، ففي ذلِكَ تَصويرٌ لانقِلابِ النِّظامِ السَّماويِّ في أشمَلِ صوَرِهِ، وأشَدِّها وقعًا على النُّفوسِ؛ إذ تَفقِدُ السَّماءُ حينَئِذٍ زينَتَها، ويَضطَرِبُ النِّظامُ الَّذي كانَت تَسيرُ عَلَيهِ الأجرامُ، ولَو أُفرِدَ المَذكورُ؛ لانصَرَفَ الذِّهنُ

(1) السّامرّائيّ، معاني النحو: 1/ 117

إلَى نَوْعٍ خاصٍّ، أو مَثَلٍ مَفروضٍ، أمّا الجَمعُ؛ فقَدْ جاءَ في مَقامِ التَّهويلِ والعُمومِ، يوافِقُ نَظيرَهُ في السَّماءِ والبِحارِ والقُبورِ؛ ليَكونَ السّياقُ كُلُّهُ في صورَةٍ كَونيَّةٍ شامِلَةٍ.

وَجمعُ ﴿ٱلۡكَوَاكِبُ﴾ يُفيدُ التَّكاثُرَ والتَّفَرُّق؛ ليُصَوِّرَ اللَّفْظُ مَشهَدًا كَونيًّا تَتَناثَرُ فيهِ كَواكِبُ السَّماءِ كلُّها، كَأنَّها عِقدٌ انفَصَمَ، فتَبَدَّدَت حَبّاتُهُ في الفَضاءِ، فالجَمعُ يَتَناسَبُ مَعَ فعلِ الانتِثار، الَّذي لا يُطْلَقُ إلّا على مُتَعَدِّدٍ؛ فكانَ المُرَكَّبُ الكَلاميُّ في غايَةِ التَّناسُقِ، بَينَ المُسنَدِ والمُسنَدِ إلَيهِ، وهوَ مِمّا يَدُلُّ على البَلاغَةِ المُعجِزَةِ لِلقُرآنِ الكَريمِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالكَواكِب:

انتِثارُ الكَواكِبِ نَتيجَةٌ لانكِدارِ النُّجوم

آثَرَ القرآنُ التَّعبيرَ بلَفظِ ﴿ٱلۡكَوَاكِبُ﴾ في قَولِ اللّه تَعالَى: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾؛ لِما يَحمِلُه هَذا التَّعبيرُ المُعجِزُ مِن لَفْتَةٍ بَيانيَّةٍ علميَّةٍ بالِغَة، فالكَواكِبُ تَدورُ في أفْلاكِ النُّجومِ أوِ الشُّموسِ، الَّتي هيَ مَرْكَزُ الجاذِبيَّةِ بالنِّسْبَةِ لِلْكَواكِبِ، فإذا ماتَتِ النُّجومُ بانْكِدارِها، فقَدَت قُدْرَتَها على الجَذْبِ ومَسْكِ كَواكِبِها، فتَناثَرَت الكَواكِبُ، كَما يَنْفَرِطُ العِقْدُ، ويَتَبَعْثَرُ الخَرَزُ.

وَجاءَ اختيارُ الكَواكِبِ دونَ النُّجومِ في هذا المَقامِ؛ لِأنَّ الكَواكِبَ هيَ الَّتي يَتَخَيَّلُها النّاسُ في نِظامٍ، كَأنَّها مَثاقيبُ في السَّماءِ، تَسيرُ على هُدًى واتِّساقٍ؛ فإذا انتَثَرَت؛ كانَ في ذلِكَ تَصْويرٌ لانفِصامِ عِقْدِ الكَوْنِ، وزَوالِ الميزانِ، وانهيارِ التَّنسيقِ العَجيبِ، فالفعلُ ﴿ٱنتَثَرَتۡ﴾ يُناسِبُ مَعنَى التَّبَعثُرِ والتَّناثُرِ، كَما تَتَناثَرُ الدُّرَرُ مِن سِلْكِها، وهذا إلَى ما يُتَصَوَّرُ في الكَواكِبِ أقْرَبُ مِنْهُ في النُّجوم؛ إذْ لَم يَجْرِ العُرفُ في تَصْويرِ النُّجومِ بمِثْلِ ذلِكَ التَّمْثيلِ، زيادَةً إلَى انْسِجامِه مَعَ الحَقيقَةِ العِلميّةِ[1]، فكانَ التَّعبيرُ بالكَواكِبِ أبْلَغَ في التَّهويلِ، وأكْثَرَ انسِجامًا

(1) المُصلح، الإعجاز العلمي، مبحث: في التفرقة بين النجم والكوكب: 171 - 177.

مَعَ الصّورَةِ البَيانيَّةِ لِلانتِثارِ، فاتَّسَقَ المُسمَّى مَعَ المُسنَدِ، واجتَمَعَ في التَّركيبِ قوَّةُ الدِّلالَةِ وبَلاغَةُ التَّصويرِ.

دَلالَةُ مادَّةِ الانتِثار:

الانـحِـلالُ بعدَ الانتِظام

آثر القرآنُ الكريمُ استِعمالَ فِعلِ الانتِثارِ في قَولِ اللّه تَعالَى: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ - دونَ غَيرِها - لِما يَتَفَرَّد به هذا اللَّفظُ مِن بلاغةٍ قُرآنيَّة، فهو تَصويرٌ مُحكَمٌ لِمَشهَدٍ كَونيٍّ هائِلٍ، إحالةِ نِظامِ السَّماءِ إلَى خَرابٍ واضطِرابٍ، فالفِعلُ ﴿ٱنتَثَرَتۡ﴾ بمعنى: تَساقَطَت مُتَفَرِّقَة[1]، فالانتثار هوَ تَبَدُّدُ الأشياءِ، وتَفَرُّقُ بَعضِها عَن بَعضٍ بغَيرِ نِظامٍ، كَما تُقالُ العِبارَةُ في انتِثارِ الدُّرِّ عِندَ انقِطاعِ سِلكِهِ، فاستُعمِلَت هذه المادَّةُ في الكَواكِبِ؛ لِتُصَوِّرَ انحِلالَ التَّنظيمِ السَّماويِّ المُحكَمِ بالجاذِبيَّةِ، وذَهابَ البَهاءِ والجَمالِ، وفيهِ رَمزٌ إلَى افتِقادِ الهُدَى والقَصدِ، وجاء هذا الوصفُ القرآنيُّ؛ لِيَزيدَ المَشهَدَ تَصويرًا وجِدَّةً، فيتخيَّلَ السّامِعُ الكَواكِبَ، وهيَ تَتَطايَرُ في الفَضاءِ، كَأنَّها جَواهِرُ أُطلِقَت مِن عِقدِها، وذلِكَ أبلَغُ في تَهويلِ المُنقَلَبِ.

ومِمّا يُذكَرُ في سِرِّ اختيارِ التَّعبيرِ بالفِعلِ ﴿ٱنتَثَرَتۡ﴾ دون (تَفَرَّقَت) أو (تَبعثَرَت) أو (زالَت) - وإن كانَ كُلٌّ ذلِكَ صادِقًا في المَعنَى - لأنَّ الانتِثارَ لا يَدُلُّ فقَط على وُقوعِ الكَواكِبِ مُتَفَرِّقَة[2]، بَلْ كَذلِكَ على أنّها قبل انتِثارِها كانَت مُرتَبِطَةً بنِظامٍ دَقيقٍ عَظيمِ الشَّأنِ، مُنضَبِطَةً بمَسارٍ مُحَدَّدٍ، مَربوطَةً بقوانينَ مُحكَمَةٍ، وقد اختيرَ هذا اللفظُ القرآنيُّ البليغُ؛ ليدلَّ على أنَّ ما كان يُرى في النظامِ الكونيِّ من تماسُكٍ ودقّةٍ وجَمالٍ في حركةِ الكواكبِ، سَيَؤولُ إلى فوضَى وانحلالٍ وتبعثُرٍ تامّ؛ إيذانًا بانهيارِ السَّقفِ المحفوظِ، وتبدُّلِ وجهِ السماءِ.

(1) أبو البقاء، الكُلّيّات، ص: 202.

(2) الحميري اليمني، شمس العلوم: 10/ 6486.

بَراعَةُ الاستِعارَةِ في ذِكْرِ الانْتِثار:

اختِلالُ الجاذِبيَّة فـي الـفَـضـاء، وتَفَرُّقُ الكَواكِبِ في السَّماء

إسْنادُ فِعْلِ الانتِثارِ إلى الكَواكِبِ من قَولِ اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ "مُستَعارٌ لِتَفَرُّقِ هَيئاتِ اجتِماعِها المَعروفَةِ في مَواقِعِها، أوْ مُسْتَعارٌ لِخُروجِها مِن دَوائِرِ أفْلاكِها وسُمُوتِها، فتَبدو مُضطَرِبَةً في الفضاء، بَعدَ أنْ كانَت تَلوحُ كَأنَّها قارَّة، فانتِثارُها تَبَدُّدُها وتفرُّقُ مُجتَمَعِها، وذلك مِن آثارِ اختِلالِ قوَّةِ الجاذِبيَّةِ الَّتي أُقيمَ عليها نِظامُ العالَمِ الشَّمسيّ"[1].

بَلاغَةُ صيغَةِ المُطاوَعَة:

تَجْسيدُ مَشْهَدِ تَناثُرِ الكَواكِب

جاء فِعلُ النَّثْرِ المُسنَدُ إلى الكَواكِبِ في قَولِ اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ بصيغَةِ المُطاوَعَة؛ للدَّلالَةِ على الانْفِعالِ الذّاتيّ، فهوَ مِنَ الأساليبِ القُرْآنيَّةِ البَليغَةِ؛ لأنَّهُ يُنَزِّلُ الكَواكِبَ مَنزِلَةَ مَن يُنشِئُ الفِعلَ، فكَأنَّها هيَ الَّتي انتَثَرَت بنَفْسِها، مَعَ أنَّها مُنتَثِرَةٌ بقُدرَةِ اللّه تَعالَى، وفي التَّعبيرِ إبرازٌ لِهَولِ المَشهَدِ، فتُتَخَيَّلُ الكَواكِبُ كَأنَّها أجرامٌ تَتَفَصَّد، وتَتَبَعثَر، وتَتَناثَرُ بفِعلِها، وهوَ تَصويرٌ يُضاعِفُ مِن إثارَةِ الرَّهبَةِ والدَّهشَةِ، فلَم يقلِ السّياقُ: (وَإذا الكَواكِبُ نُثِرَت) على صيغَةِ المَبنيِّ لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُه، بَلْ جاءَ الإسنادُ إلَيها ذاتًا بصيغَةِ المُطاوَعَة؛ ليَتَّسِقَ ذلِكَ مَعَ سياقِ الكَوائِنِ المُنهارَةِ والقوَى الكَبيرَةِ الَّتي تَتَفَكَّكُ أمامَ القُدرَةِ الإلَهيَّة.

وَهذا الضَّربُ مِنَ التَّعبيرِ سَبَقَ في صَدْرِ السّورَة: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، وجاءَ في غَيرِها مِنَ الآياتِ الَّتي تَصِفُ التَّقَلُّباتِ الكَونيَّةَ المَهولَة، الَّتي تَصْحَبُ مَجيءَ يَومِ القيامة، كَقَولِ اللّه تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ [الانشقاق: 1]، ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ [التكوير: 2]، فهيَ تُصَوِّرُ الأجرامَ كَأنَّها ذَواتٌ تَتَحَرَّكُ، وتَتَصَرَّفُ، فتُصبِحُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 171.

أطرافُ الكَونِ كُلُّها في انفِعالٍ وتَغَيُّرٍ؛ ليَتَهَيَّأَ الذِّهنُ لاستِقبالِ مَشهَدِ يَومِ الدّينِ بكُلِّ ما فيهِ مِن جَلالٍ وهَولٍ.

دَلالَةُ صيغَةِ الماضي:

تَصويرُ المُستَقْبَلِ في صورَةِ الماضي دَليلٌ على تَحَقُّقِ وُقوعِه

جاءَ التَّعبيرُ القُرآنيُّ عَنِ انتِثارِ الكَواكِبِ بصيغَةِ الماضي في قَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾؛ جَرْيًا على المعهودِ مِنَ البَلاغَةِ القُرآنيَّةِ، وهوَ الإخبارُ عَنِ المُستَقبَلِ بما يَدُلُّ على أنَّهُ كائِنٌ لا مَحالَةَ، حَتَّى كَأنَّهُ وقَعَ، وفُرِغَ مِنهُ[1]، فهوَ ماضٍ في لَفظِهِ، مُستَقبَلٌ في مَعناهُ، وهذا ما يُسَمّيهِ البَيانيّونَ: تَصويرُ المُستَقبَلِ في صورَةِ الماضي تَحقيقًا وتَهويلًا، فإذا سَمِعَ السّامِعُ: ﴿ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ تَصَوَّرَها مَشهَدًا مُنجَزًا، كَأنَّهُ قَد شاهَدَهُ عَينًا، وهوَ أبلَغُ في الإنذارِ وأقوَى في تَحريكِ الوِجدانِ.

دَلالَةُ العَطْفِ بالواو:

إبرازُ التَّرابُطِ بَينَ المَشاهِدِ الكَونيَّةِ لِلتَّهويلِ والتَّخويف

عَطفَ النَّظْمُ القُرآنيُّ تَفجيرَ البِحارِ على ما سَبَقَ مِن انفِطارِ السَّماءِ وانتِثارِ الكَواكِبِ، في سياقِ تَصويرِ انهيارِ النِّظامِ الكَونيِّ، فقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾، وأوثِرَ العَطفُ بالواوِ دونَ غيرِها لِمُطلَقِ الجَمعِ[2]، فلَيسَ في تَقْديمِ المَعْطوفاتِ أوْ تَأْخيرِها دَليلٌ على أنَّهُ بَدَأَ بشَيْءٍ قَبْلَ شَيْءٍ؛ لأنّ الواوَ تأتي للتَّرتيبِ ولِغَيرِهِ[3].

فَذُكِرَ هنا أوَّلًا ما يَتَّصِلُ بالجِهَةِ العُليا، وهوَ السَّماءُ وكَواكِبُها، ثُمَّ أُتبِعَ ذلكَ بذِكرِ البِحارِ في الأرضِ؛ ليَكونَ المَشهَدُ شامِلًا لِما فوقَ الإنسانِ وما يُحيطُ بهِ في أرضِهِ، فالعَطفُ هُنا يُفيدُ تَكامُلَ صوَرِ الخَرابِ، بذِكرِ العُلويِّ ثُمَّ الأرْضيِّ؛ لِتَتَحَقَّقَ الإحاطَةُ بجَميعِ الجِهاتِ، وهوَ مِمّا يُقَوّي الرَّهبَةَ، ويُثَبِّتُ في الذِّهنِ أنَّ الخَرابَ يَعُمُّ كُلَّ شَيءٍ، فلا مَلجَأَ ولا مَفَرَّ.

(1) الرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 2/ 250.
(2) الرّضيّ، شرح الرّضي على الكافية: 2/ 403.
(3) سيبويه، الكتاب: 1/ 218، والسّامرّائيّ، معاني النحو: 3/ 188.

دَلالةُ جَمعِ ﴿ٱلۡبِحَارُ﴾:

مِن أهوالِ اليَومِ الآخِـرِ تَـفجيرُ جَميعِ البِحار

آثرَ نَظمُ القرآنِ التَّعبيرَ بجَمعِ البِحارِ في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾ دونَ إفرادِها على الجِنسِ: للتَّفخيم والتَّهويل؛ إذ يَدُلُّ هذا الجَمعُ على أنَّ كُلَّ بَحرٍ مَعروفٍ لِلنّاسِ في مَشارِقِ الأرضِ ومَغارِبِها سَيَكونُ مَحَلًّا لِهذا التَّفَجُّرِ المَهولِ، فلا يَبقَى بَحرٌ على هَيئَتِهِ، بَل تَتَفَجَّرُ مياهُهُ، وتَزولُ الحُدودُ بَينَها، فتَصيرُ الأرضُ كَأنَّها ماءٌ غامِرٌ.

وفي الجَمعِ إشعارٌ بالاستِغراقِ؛ لأنَّهُ يُفيدُ انفِجارَ جَميعِ البِحارِ، كَبيرِها وصَغيرِها، ويُظهِرُ المَشهَدَ في صورَةٍ كَونيَّةٍ عامَّةٍ لا يَسلَمُ مِنها مَكانٌ، وهذا أبلَغُ في تَصويرِ الرَّهبَةِ وانهيارِ النِّظامِ الكَونيِّ يَومَئِذٍ، فالمَقصودُ مِن الجَمعِ هوَ التَّنبيهُ على انتِشارِ مَشاهِدِ الخَرابِ في جَميعِ الأرضِ، حَتَّى لا يَتَوَهَّمَ مُتَوَهِّمٌ أنَّ بَحرًا دونَ آخَرَ يَسلَمُ مِن هذا التَّفجيرِ العَظيمِ.

دَلالَةُ تَعريفِ ﴿ٱلۡبِحَارُ﴾:

استِغْراقُ جَميعِ مَجاري المِياهِ مِنَ المُحيطات والبِحار

جاءَ تَعريفُ لَفظِ البِحارِ في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾؛ للدَّلالَةِ على الاستِغراقِ الجِنسيّ؛ فيَدخُلُ فيهِ كُلُّ ما يُطلَقُ عَلَيهِ اسمُ بَحر، مِن المُحيطاتِ والبِحارِ المَعروفَةِ، والبُحَيراتِ العِظامِ الَّتي تُشبِهُ البِحارَ في سَعَتِها، فهذا الاستِغراقُ يُفيدُ الشُّمولَ لِكُلِّ مَجمَعٍ مائيّ، ويُصَوِّرُ الخَطبَ في صورَةِ الشُّمولِ الكَونيِّ لِلأرضِ[1].

ولأنَّ المَقصودَ لَيسَ بَحرًا واحِدًا أو نَوعًا بَعضيًّا، بَل الجِنسُ كُلُّهُ: إذا فُجِّرَتِ البِحارُ كُلُّها؛ انقَلَبَتِ الأرضُ، وسَقَطَ رُكنٌ عَظيمٌ مِن أركانِ الحَياةِ، وهوَ مِمّا يُزيدُ في التَّهويلِ، ويُعطي صورَةً كَونيَّةً عامَّةً

(1) السّامرّائيّ، معاني النحو: 1/ 107.

للاضطِرابِ يَومَ القيامَةِ، وفي ذلِكَ إشعارٌ بأنَّ الحَدَثَ يَطالُ جَميعَ أقطارِ الأرضِ، فيَكونُ التَّصويرُ أبلَغَ في الرَّهبَةِ والإنذارِ.

بَلاغَةُ استِعمالِ مادَّةِ التَّفْجير:

مَشهَدُ التَّفَجُّرِ الكَونيّ، وخُروجِ البِحارِ عَن نِظامِها

جاءَ التَّعبيرُ القُرآنيُّ بمادَّةِ التَّفجيرِ في قَولِ اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾؛ للإشارَةِ إلَى شِدَّةِ الاضطِرابِ في مياهِ البِحارِ، حَتَّى تَتَفَجَّرَ بَعضُها في بَعضٍ، وتَزولَ الحَواجِزُ الَّتي كانَت مانِعَةً بَينَها، فتَصيرَ الأرضُ كَأنَّها مُغرَقَةٌ في فوضَى مائيَّةٍ عامَّةٍ، وهذا أبلَغُ في تَهويلِ المَشهَدِ؛ إذِ البِحارُ أعظَمُ ما يَراهُ الإنسانُ في الأرضِ، فإذا انقَلَبَت، وتَفَجَّرَت؛ زالَ كُلُّ أمنٍ وثَباتٍ.

وأوثِرت هذِهِ المادَّةُ دون غيرِها - كالفَيَضانِ أوِ الامتِلاء - لأنَّها مِن أبلَغِ المُفرَدات في تَصويرِ هذا المَشهَد، فالتَّفجيرُ في الأصلِ هوَ شَقُّ الأرضِ؛ لتَسييلِ الماءِ في المَسالِكِ، حَتَّى يَنْبَعِثَ كَثيرًا غامِرًا، وهَذا ما يُؤكِّدُهُ واقِعُ استعمالِ المُفرَدَةِ في القُرآنِ الكَريم، فأكثَر ما ورَدَ هَذا اللَّفظُ في القُرآنِ الكَريمِ في تَفجيرِ الماءِ، قالَ تَعالَى: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ [القمر: 12]، ﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣﴾ [الكهف: 33]، ﴿فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾ [الإسراء: 91]، ﴿تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعٗا ٩٠﴾ [الإسراء: 90]، ﴿فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾ [البقرة: 60][1].

فَجُعِلَ حالُ البِحارِ يَومَ القيامَةِ كَأنَّها عُيونٌ فُجِّرَت، تَتَدافَعُ مياهُها، وتَتَفَجَّرُ بَعضُها في بَعض، فيَزولُ حَدُّها، ويَطغى ماؤُها على البَراري، ويَغمُرُ المَعمورَ، والمَعنَى: أنَّهُ لا يَبقَى بَحرٌ على ما هوَ عَلَيهِ، بَل يَصيرُ البَحرُ بَحرًا آخَرَ في شِدَّةِ الاضطِراب، وفي الفَوَران، فالتَّعبيرُ بالتَّفجيرِ أبلَغُ مِن (فاضَت) أوِ (امتَلَأت)؛ لأنَّهُ يَدُلُّ على تَدافُعٍ وتَفَجُّرٍ، وانفِجارٍ مَهولٍ يُخرِجُ البِحارَ عَن سَجيَّتِها.

(1) الأصفِهانيّ، المفردات، ص: 625.

دلالة التعبير بصيغة المُبالَغَة:

تَصويرُ خُروجِ ماءِ البِحارِ عن طَبيعَتِها بشِدَّةٍ مُذهِلَة

آثر القرآن الكريم التعبير بصيغة التَّفعيل في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾؛ لما تَحمِلُه صيغةُ المُبالَغَةِ مِنَ الدَّلالَةِ على شِدَّةِ الفِعل، فأصل التفجير إطلاقه على الشَّيءِ المحبوسِ؛ ليتدفَّقَ بغزارةٍ، وعلى ذلك فقولُه تعالى: ﴿فُجِّرَتْ﴾ يُفيدُ أنَّ البحارَ قد شُقَّت أرجاؤُها، وتدفَّقَ ماؤُها، فتفجيرُ البِحارِ هوَ انطلاقُ مائِها مِن مُستَواه، وفَيَضانُه على ما حولَها مِن الأرَضين، وبذلِكَ التَّفجيرِ يَعُمُّ الماءُ على الأرض، فيُهلِكُ ما عليها، ويختَلُّ سَطحُها[1]، فتَفجيرُ البحارِ يُعبِّرُ عن تحوُّلِها إلى قوًى طاغيَة، إمّا بتَفجُّرِ مياهِها واندفاعِها على اليابسةِ، فتَغمُرُ ما حولَها، أو بتَحوُّلِ ما فيها مِن عَناصِرَ إلى أُخرَى مدمّرةٍ، ويَحتملُ أن يكونَ المعنى الجامعُ: إخراجُها عن طبيعتِها الرّاسخةِ؛ لتُصبِحَ عُنصُرَ فوضَى وهَدْم، بعد أن كانت عُنصُرَ حياةٍ.

دَلالَةُ البِناءِ لِلمَفْعول:

تَصويرُ هَولِ القِيامَةِ لِلسّامِعين

جاءَ فِعلُ التَّفجيرِ في قَولِ الله تَعالَى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ مَبنيًّا لما لَم يُسَمَّ فاعِلُه، والبِناءُ لِلمَفعول هُنا لَيْسَ لِلإبهام، بَل لِلتَّعظيم والإشارَةِ إلَى أنَّ الأمرَ فوقَ مُتَناوَلِ المَخلوقات، وعَدَلَ النَّظْمُ القُرآنيُّ عَن إسنادِ فِعلِ التَّفجيرِ إلَى البِحارِ، كما سَبَقَ في انفِطارِ السَّماءِ وانتِثارِ الكَواكِب - فلم يقلْ: (وإذا البِحارُ انفَجَرت) - لِبَيانِ الفَرْقِ في الصّورَةِ المُشاهَدَة؛ فإنَّه - وإنْ كان جميعُها بتَقديرِ المَلِكِ القَهّار - يُنسَبُ إلَى السَّماءِ والكَواكِبِ الانفِطارُ والانتِثارُ؛ لأنَّهُما يُشاهَدانِ بمَظاهِرِهما كَأنَّهُما يَتَفاعَلانِ في ذاتِهما بالانشِقاقِ والتَّناثُر؛ فلذلِكَ أُسنِدَ إلَيهما الفعلُ مُطاوَعَةً؛ أمّا البِحارُ؛ فلا يُلاحَظُ فيها الانفعال، بَلْ يُحَسُّ فيهِ تَأثُّرُ القُدرَةِ الغالِبَةِ، فبُنِيَ فِعلُهُ لِمَفعولِه، وفي هذا التَّنويعِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 172.

في الأساليبِ إمعانٌ في تَعديدِ صوَرِ الهَولِ، وذلِكَ أدَقُّ في التَّصويرِ، وأبلَغُ في التَّهويلِ.

تَوجيهُ المُتشابِهِ اللَّفْظيّ:

مُناسبَةُ التَّفْجيرِ للانفِطار والانتِثار، ومُناسبَةُ التَّسْجيرِ للتَّكْويرِ والتَّزْويج

تَشابَهَت هَذِه الآيةُ: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾، معَ قَولِ اللّه تعالى في سورَةِ التَّكوير: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ٦﴾ [التكوير: 6]، وكُلُّ لَفظٍ منهما مُلائِمٌ في مَوضِعِه، فسورَةُ الانفِطارِ اختَصَّت بالانفِجارِ لِمُناسَبَتِه مَطلَعَ السّورة؛ لأنّ تَفجيرَ البِحارِ يُفيدُ فتحَ بعضِها إلى بعض، بانفِجارِ العَذْبِ إلى المالِحِ، والمالِحِ إلى العذْب، وهذا مُناسِبٌ لانفِطارِ السَّماء، وانتِثارِ الكَواكِب.

وأمّا مَوضِعُ سورَةِ التَّكوير؛ فجاء مُناسِبًا لِسياقِه، مِن حَشْرِ الوحوش، وتَزويجِ النفوس، فتَسجيرُ البِحارِ مناسِبٌ لهذا المَشهَد؛ لأنَّ التَّسجيرَ معناهُ المِلْء، من قَولِك: (سَجَّرْتُ التَّنّور)؛ إذا مَلأتَه بالحَطَب، والمرادُ اجتماع مياهها[1].

سِرُّ عَطفِ بَعثَرَةِ القُبور:

ذِكرُ ما يَتَعَلَّقُ بمَصيرِ الفَرْدِ بَعدَ انفِراطِ عِقدِ الكَون فيهِ تَهويلٌ وتَخويف

رُتِّبَ صَدرُ سورَةِ الانفِطارِ تَرتيبًا بَديعًا لِأحداثِ يَوم القيامة؛ إذ يقول اللّه تَعالَى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾، فجاءَ خِتامُ مَطلَعِ السّورَةِ ببَعثَرَةِ القُبور في نَسَقٍ بَديع، تَدَرَّجَ بالسّامِعِ مِنَ العَوالِمِ العُليا إلَى العَوالِمِ السُّفلَى، ومِن ظَواهِرِ الكَونِ العامَّةِ إلَى مَصيرِ الإنسانِ نَفسِه، وهذا الفنّ يسمّى بالتّدَلّي، وهوَ أنْ يُذْكَرَ الأعلى ثُمَّ الأدْنَى لِنُكْتَةٍ[2]، فابْتَدَأ بالسَّماء، ثُمَّ الكَواكِب، وهيَ جُزْءٌ مِنَ السَّماء، ثُمَّ البِحارِ وهيَ جُزْءٌ مِنْ كَوْكَبِ الأرْضِ تَحتَ السَّماء، ثُمَّ القُبورِ الَّتي هيَ الجُزْءُ التَّحْتيُّ مِنْ كَوْكَبِ الأرْضِ.

(1) الغرناطي، وملاّك التأويل، ص: 503.
(2) عكّاويّ، المعجم المُفصّل في علوم البلاغة: 2/ 299.

فَبِدايَتُهُ بانفِطارِ السَّماءِ إشارَةٌ إلَى أنَّ الانقِلابَ يَبدَأُ بمَظاهِرِ الكَونِ الأجَلِّ، ثُمَّ يَتبَعُهُ انتِثارُ الكَواكِبِ لِتَفَكُّكِ النِّظامِ الفَلَكيِّ، ثُمَّ تَفجيرُ البِحارِ وهوَ مَظهَرٌ أرْضيٌّ عامٌّ يَعُمُّ البَشَرَ كافَّة، ثُمَّ خُتِمَ ببَعثَرَةِ القُبورِ، وهوَ الحَدَثُ الَّذي يَتَعَلَّقُ بمَصيرِ كُلِّ فرد، وبِهذا التَّدَرُّجِ يَكونُ التَّخويفُ أشَدَّ؛ إذ يَسوقُ السّامِعَ مِن عَجائِبِ الكَونِ المُهَوِّلَةِ إلَى المَصيرِ الشَّخصيِّ الَّذي لا مَفَرَّ لَهُ مِنهُ، وهوَ مِمّا يُعَدُّ مِن بَلاغَةِ التَّرتيبِ في القُرآنِ؛ إذ يَجمَعُ بَينَ التَّهويلِ الكَونيِّ والإنذارِ الشَّخصيِّ.

دَلالَةُ لَفظِ ﴿ٱلْقُبُورُ﴾:

أثَرُ اللَّفظِ المألوفِ في تَصويرِ الهَولِ الأعظَمِ

في اختيارِ لفظِ ﴿ٱلْقُبُورُ﴾ في قَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ دِقَّةٌ بَيانيَّةٌ تَكشِفُ عَنْ نَفاذِ النَّظَرِ في مَقاصِدِ التَّعبيرِ القُرآنيِّ، ورِقَّةُ لَمسِ أعماقِ ما يَستَقِرُّ في نُفوسِ النّاسِ، فالقَبرُ لَفظٌ جارٍ على ألسِنَةِ العامَّةِ، مَألوفٌ في حَياةِ النّاسِ، مَشهودٌ في مَواقِفِ الوَداعِ، مَعروفُ المَعالِمِ والهَيئَةِ، فالتَّعبيرُ بِهِ يُقَدِّمُ صورَةً كَونيَّةً ذاتَ رَهبَةٍ، تَتَزَلزَلُ لَها الأرْكانُ؛ فالسَّماءُ تَنفَطِرُ، والكَواكِبُ تَنتَثِرُ، والبِحارُ تَنفَجِرُ، ثُمَّ تَنقَلِبُ عُيونُ الخَلقِ إلَى الأرْضِ، الَّتي استَقَرَّت فيها الأجسادُ المَقبورَة، فإذا هيَ تُبَعثَرُ في كُلِّ ناحيَةٍ مِنَ النَّواحي، مَعَ اختِلاطِ الأجْسادِ بَعضِها ببَعض.

وَفي ذِكرِ القُبورِ إشْعارٌ بأنَّ التَّبَدُّلَ الَّذي يَجتاحُ الكَونَ لا يَقِفُ عِنْدَ مَظاهِرِ السَّماءِ وعَوالِمِ الفَلَكِ، بَلْ يَبْلُغُ حَتَّى أخْفَى ما في الأرْضِ مِنْ أسْرارٍ وأجْسادٍ، فتُبَعثَرُ القُبورُ، كَما يُكشَفُ عَنْ كُلِّ دَفينٍ ومَكْنونٍ، ولَم يَأتِ الفِعْلُ ﴿بُعْثِرَتْ﴾ إلّا ليَزيدَ مِنْ فظاعَةِ المَشْهَدِ، فهوَ يُفيدُ القَلْبَ والهَدْمَ والخَلْطَ، ولَيْسَ مُجَرَّدَ نَبْشٍ أو كَشْفٍ، بَلْ كَأنَّهُ انهِدامٌ لِكُلِّ نِظامٍ وهَيئَةٍ، فيَستَوي في ذَلِكَ مَنْ طالَ نَسْيُهُ ومَنْ قَرُبَ عَهْدُهُ، ويَقِفُ كُلُّ أحَدٍ أمامَ حَقيقَةِ نَفْسِهِ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾.

دَلالَةُ التَّعريف:

الإشـــارةُ إلى القُبورِ المَعهودَةِ واقِعًا وفِكْرًا

في تَعْريفِ لَفْظِ القُبورِ دونَ تَنْكيرِهِ في قَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ دلالَةٌ بَيانيَّةٌ رَفيعَةٌ، تُنْسَجُ خيوطُها في سياقٍ يَنْقَلِبُ فيهِ كَوْنُ المَألوفِ إلَى كَوْنٍ آخَرَ مُفْزِعٍ، وتَبْرُزُ فيهِ مَظاهِرُ القوَّةِ الإلَهيَّةِ المُطْلَقَةِ، وتَتَزاحَمُ فيهِ مَشاهِدُ الهَوْلِ والبَعْثِ والجَزاءِ، فتَعْريفُ القُبورِ يُفيدُ الاستِغْراقَ[1]، كَأنَّهُ قيلَ: (جَميعُ القُبورِ بُعْثِرَت)؛ ليَدُلَّ على أنَّ البَعْثَرَةَ لا تُصيبُ قَبْرًا دونَ آخَرَ، ولا أهْلَ زَمَنٍ دونَ آخَرينَ، بَلْ هيَ شامِلَةٌ لِكُلِّ مَنْ في القُبورِ على اخْتِلافِ أحْوالِهِم وأزمانِهم.

وَهَذا التَّعْريفُ يُضيفُ لسياقِ الآياتِ مَعْنًى آخَرُ: فالقُبورُ المَعْروفَةُ لَدَى النّاسِ هيَ ما يَعْرِفونَهُ، ويزورونه، ويُشاهِدونَهُ، ويَحْفُرونَهُ بأيْديهِم، فالتَّعْريفُ يُشيرُ إلَى المَعْهودِ المُتَعَلِّقِ بالواقِعِ والذِّهْنِ؛ ليَقْتَرِبَ المَعْنَى مِنَ النَّفْسِ أكْثَرَ، وليُصْبِحَ الهَوْلُ أكْثَرَ تَجَسُّدًا وإحاطَةً.

بَلاغَةُ استِعمالِ فِعْلِ البَعْثَرَة:

تَصويرُ الهَول، وتَجسيدُ الفَزَع

جاءُ التَّعبيرُ القرآنيُّ عَنْ نَبشِ القُبورِ وإخراجِ مَنْ فيها بفِعلِ البَعْثَرَة، في قَولِ اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾، والمَعْنَى أنَّه انْقَلَبَ باطِنُها ظاهِرَها، فالبَعْثَرَةُ: الانقِلابُ، يُقالُ: بَعْثَرَ المَتاعَ؛ إذا قَلَبَ بَعْضَهُ على بَعْضٍ، وأصلُ المادَّةِ مُرَكَّبٌ مِنَ (البَعْثِ) مَعَ راءٍ ضُمَّت إلَيْه، قيلَ: هيَ راءُ الإثارَةِ؛ فيَكونُ الفِعْلُ (بَعْثَرَ) مَنْحوتًا مِنْ (بَعَثَ) و(أثارَ)، مِثْلَ: (بَسْمَلَ)، و(حَوْقَلَ)، ففي (بَعْثَرَ) مَعْنَى فِعْلَيْن: (بَعَثَ) و(أثارَ)، أي: أخْرَجَ، وقَلَبَ؛ فكَأنَّهُ قَلَبَ لأجْلِ إخْراجِ ما في المَقْلوبِ[2]، فالبَعْثَرَةُ أبلغُ في إثارةِ مَشْهَدِ الفَزَعِ التامِّ مِن أنْ يُقالَ: (نُبِشَت) أو (فُتِحَت)، فإنَّ ﴿بُعْثِرَتْ﴾ تدلُّ على قَلَقٍ واضطِرابٍ شَديدٍ، يُخرِجُ ما في القبورِ إخراجًا عنيفًا غيرَ منظَّمٍ، لا كما يُنقَلُ

(1) السّامرّائيّ، معاني النحو: 1/ 100.
(2) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 172.

الميّتُ يومَ الدَّفنِ في هدوءٍ وسكونٍ، فالأرضُ كَأنّها انقلبت، وأخرجَت ما فيها دَفعةً واحدةً، مضطربةً هائجةً؛ إيذانًا ببِدايةِ الحسابِ.

وَخُصَّت بَعْثَرَةُ القُبورِ "بالذِّكرِ مِنْ بَيْنِ حالاتِ الأرْضِ: لِما فيها مِنَ الهَوْلِ باستِحْضارِ حالَةِ الأرْضِ، وقَدْ أَلْقَت على ظاهِرِها ما كانَ في باطِنِ المَقابِرِ مِنْ جُثَثٍ كامِلَةٍ ورُفاتٍ"[1].

سِرُّ البِناءِ لِلمَفْعول:

كَفى بتَصويرِ بَعْثَرَةِ القُبورِ تَخويفًا

في بناءِ فِعْلِ البَعْثَرَة لِلمَفْعولِ مِن قَولِ اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ نُكْتَةٌ بَيانيَّةٌ رَفيعَةٌ، تَتَجَلَّى في سياقٍ يَتَناسَبُ فيهِ كُلُّ تَعْبيرٍ مَعَ هَيْبَةِ المَقام، فهوَ مَقامٌ تَنْهَدِمُ فيهِ القوَى، وتَتَفَكَّكُ فيهِ نُظُمُ الكَوْنِ، ويَخْرُجُ فيهِ كُلُّ مَكْنونٍ إلَى العَلَنِ، فجاءَ الفِعْلُ مَبْنيًّا لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُهُ؛ ليَدُلَّ على أنَّ الحَدَثَ عَظيمٌ في نَفْسِهِ، مُهيبٌ في آثارِهِ، لا يُشْغَلُ فيهِ السّياقُ بذِكْرِ فاعِلٍ؛ لأنَّ المَقصودَ هوَ تَصْويرُ وقْعَةِ البَعْثَرَةِ نَفْسِها وما تُحْدِثُهُ مِنْ هَوْلٍ، لا مَنْ قامَ بها، فالقُبورُ هيَ المُبْعَثَرَةُ، وهَذا أدْخَلُ في إثارَةِ الفَزَعِ، وأبْلَغُ في إرْهافِ الشُّعورِ، مِن أنْ يُقالَ: بَعْثَرَ اللّه القُبورَ، أو بَعْثَرَتِ الأرْضُ القُبورَ.

دَلالَةُ التَّعبيرِ بالماضي:

تَحَقُّقُ الوُقوعِ الَّذي يَحمِلُ شِدَّةَ التَّخويفِ والتَّهْويل

في الإتيانِ بفِعْلِ البَعْثَرَة على صيغَةِ الماضي، في قَولِ اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ نُكْتَةٌ بَلاغيَّةٌ دَقيقَةٌ، تَكْشِفُ عَنْ أُفُقٍ عالٍ في التَّصْويرِ، وحِكْمَةٍ رَبّانيَّةٍ في الإنْذارِ والإيقاظِ؛ إذِ المَعْروفُ أنَّ صيغَةَ الماضي تَدُلُّ على التَّحَقُّقِ والوُقوعِ، فإذا جاءَت في سياقٍ يَتَعَلَّقُ بالمُسْتَقْبَلِ؛ كانَ ذَلِكَ إظْهارًا لِكَمالِ التَّحَقُّقِ، فلا مَجالَ فيهِ لِلشَّكِّ، ولا لِلتَّرَدُّدِ، ولا لِلتَّأْخيرِ، فكَأنّه وقَعَ الأمرُ، وانقَضَى.

فَكَأنَّ السّورَةَ تُصَوِّرُ المُسْتَقْبَلَ المُفْزِعَ بصيغَةِ الماضي؛ لِتَجْعَلَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 172.

السّامِعَ في مَوْقِفِ المُشاهِدِ الآنَ، ولَيْسَ في مَوْقِفِ مَنْ يَنْتَظِرُ حُدوثًا غامِضًا في زَمَنٍ قادِمٍ؛ فالصّيغَةُ الماضيَةُ تُقَرِّبُ الغائِبَ، وتُجَسِّدُ الهَوْلَ، وتَدْفَعُ النَّفْسَ إلَى الخَوْفِ الحاضِرِ، لا الأمنِ مِنْ غَيْبٍ بَعيدٍ.

بلاغَةُ الإطْنابِ بتَعاطُفِ جُمَلِ الشَّرْط:

التَّرْتيبُ والتَّكْثيفُ في تَصويرِ مَشاهِدِ يَومِ القيامَة

تَعاقُبُ الجُمَلِ المُصَدَّرَةِ بـ(إذا)، في قَولِ اللّه تَعالَى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾، مَبْنِيٌّ على طَريقِ الإطنابِ، الّذي يُقْصَدُ مِنْهُ تَكْثيفُ التَّصْويرِ، وتَشْديدُ وقْعِ المُخْبَرِ بِهِ في نُفوسِ السّامِعينَ، ويُلاحَظُ أنَّ الجُمَلَ المُتَعاطِفَةَ المُضافَ إلَيْها هيَ هُنا أقَلُّ مِنَ اللّاتي في سورَةِ التَّكْويرِ؛ لأنَّ المَقامَ لَم يَقْتَضِ تَطْويلَ الإطْنابِ، كَما اقْتَضاهُ المَقامُ في سورَةِ التَّكْويرِ، فهوَ وإنْ كانَ في كِلْتَيْهِما مُقْتَضٍ لِلإطْنابِ، إلّا أنَّهُ مُتَفاوِتٌ؛ لأنَّ سورَةَ التَّكْويرِ مِنْ أوَّلِ السّوَرِ نُزولًا، وسورَةُ الانفِطارِ نَزَلَت بَعْدَها بأرْبَعٍ وسَبْعينَ سورَةً، تَكَرَّرَ في بَعْضِها إثْباتُ البَعْثِ والجَزاءِ والإنْذارِ، وتَقَرَّرَ عِنْدَ المُخاطَبينَ، فأغْنَى عَن تَطْويلِ الإطْنابِ والتَّهْويلِ[1].

وَهذا الإطنابُ بتَعاقُبِ الجُمَلِ المُصَدَّرَةِ بـ(إذا) فيه إشارةٌ إلى تَرسيخِ مَشاهِدِ يَومِ القيامَةِ في نُفوسِ السّامِعين؛ تمهيدًا لِقَولِ اللّه تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾، وفيهِ تَنْبيهٌ وتَذْكير، وتَهْيِئَةٌ لِسَوْقِ الحُجَّةِ على المُكَذِّبينَ.

دَلالَةُ الأفْعالِ الصوتيةِ:

شِدَّةُ وقْعِ الصَّوتِ على نَفسِ السّامِعِ

خَتْمُ الآياتِ الأرْبَعِ الأوَلِ بالأفْعالِ ﴿ٱنفَطَرَتْ﴾ و﴿ٱنتَثَرَتْ﴾ و﴿فُجِّرَتْ﴾ و﴿بُعْثِرَتْ﴾ مَخْتومَةً كُلُّها براءٍ مَفْتوحَةٍ وتاءٍ ساكِنَة: يُنْشِئُ نَغْمَةً بَلاغيَّةً موحَّدَةً، تُؤَكِّدُ بشِدَّةِ وقْعِها وتَكْرارِهِ أنَّ ما بَيْنَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 170.

السَّماءِ والأرْضِ قَدْ تَغَيَّرَ، وأنَّ الكَوْنَ بكُلِّ أرْكانِهِ قَدْ دَخَلَ في طَوْرٍ آخَرَ، فانْهَدَمَ النِّظامُ المَعْهودُ، وبَدَأ نِظامُ الحِسابِ والجَزاءِ.

عِلَّةُ فصْلِ جُملَةِ الجَواب:

بَلاغَةُ الفَصْلِ بَينَ الشَّرْطِ وجَوابِهِ في الإيقاعِ والمَقام

فُصِلَت جُملَةُ الجَوابِ في قَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ عَنْ جُمَلِ الشَّرْطِ السّابِقَةِ عَلَيْها: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾، وهوَ جارٍ على أُسْلوبٍ بَلاغيٍّ مَقْصودٍ مِنْهُ تَفْسيحُ المَجالِ لِتَصْويرِ تِلْكَ المَشاهِدِ الكَوْنيَّةِ على وجْهٍ يُثيرُ في النُّفوسِ رَهْبَةَ الهَوْلِ وتَوَقُّعَ العاقِبَةِ، فتَعاقُبُ الجُمَلِ الشَّرْطيَّةِ بـ(إذا) مَعَ تَعْليقِ الجَوابِ حَتَّى الخِتامِ، يُؤَدّي مَعْنَى التَّشْويقِ، ويُهَيِّئُ السّامِعَ لِتَلَقّي الجَوابِ بوَقْعٍ أقْوَى؛ فكَأنَّ المُتَلَقّي يَبْقَى مُتَرَقِّبًا لِما يَتَرَتَّبُ على تِلْكَ الحَوادِثِ العِظامِ، حَتَّى إذا وَرَدَ الجَوابُ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾؛ وقَعَ في نَفْسِهِ وقْعًا شَديدًا عَنيفًا، يُشْبِهُ شِدَّةَ انفِراطِ المَشاهِدِ الكَوْنيَّةِ المُنْقَلِبَة. فجاءَ الفَصْلُ بَيْنَ الجَوابِ والشَّرْطِ؛ لِتَكْثيفِ التَّصْويرِ وتَشْديدِ الوَقْعِ، وهوَ مَعْهودٌ في الفَصاحَةِ القُرْآنيَّةِ، خاصَّةً في سِياقِ التَّرْهيبِ والتَّنْبيهِ على عَظيمِ المُنْقَلَبِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالعِلْم:

العِلْمُ في مَشْهَدِ الحِسابِ دَليلٌ على إقامَةِ الحُجَّة

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالعِلْمِ في قَولِ اللّه تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ - دونَ الرُّؤْيَةِ مَثَلًا أوِ الشَّهادَة - لأنَّ العِلْمَ أدَقُّ إدْراكًا، وأشْمَلُ وُصولًا، وأعْظَمُ نُفوذًا إلَى الباطِنِ؛ والعِلْمُ يَتَحَقَّقُ بإدْراكِ ما لَم يَكُنْ مَعلومًا مِنْ قَبلُ، وبتَذَكُّرِ ما نُسيَ لِطولِ المدَّةِ عليهِ، وهذا وعيدٌ بالحِسابِ على جَميعِ أعمالِ المُشركين، وهُمُ المَقصودُ بالسّورَة، ووَعْدٌ لِلْمُتَّقين، ومُخْتَلَطٌ لِمَنْ عَملوا عَمَلًا صالحًا وآخَرَ سَيِّئًا[1]، وفي ذِكرِ تَعْريضٌ بمَنْ كانَ غافِلًا في الدُّنْيا عَن كُنْهِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 173.

عَمَله، فإثْباتُ "العِلْمِ لِلنّاسِ بما قَدَّموا، وأخَّروا عِنْدَ حُصولِ تِلْكَ الشُّروطِ: لِعَدَمِ الاعْتِدادِ بِعِلْمِهِم بذلِكَ الَّذي كانَ في الحَياةِ الدُّنْيا، فنُزِّلَ مَنْزِلَةَ عَدَمِ العِلْمِ"[1].

فَلَو قيلَ: (رَأت نَفسٌ ما قَدَّمَت وأخَّرَت)؛ لاقتَرَبَ المَعنَى مِنَ الإدراكِ البَصَريِّ الظّاهِريِّ، أي: كَأنَّها أبصَرَتِ الأعمالَ، وشاهَدَتِ الأحوال، وهَذا مَعنًى صَحيحٌ في نَفسِهِ، لَكِنَّهُ لا يَستَوفي شُمولَ الحِسابِ النَّفسيِّ، ووَقعَ الصَّدْمَةِ العِلميَّةِ في دَواخِلِ الإنسانِ، أمّا التَّعبيرُ بـ﴿عَلِمَتْ﴾؛ فيُفيدُ أنَّها أدرَكَت إدراكًا تامًّا بلا حاجَةٍ إلَى رُؤيَةٍ ولا شاهِدٍ، بَل صارَ ما عَمِلَتهُ مُنكَشِفًا لَها في نَفسِها، كَأنَّها قامَت تَجري حِسابَها مِن داخِلِها، لا يَحجُبُهُ حِجابٌ، ولا يُخفيهِ خَفاءٌ؛ وذَلِكَ أبلَغُ في التَّوبيخِ والإلزامِ.

وَمِمّا يُذكَرُ في سِرِّ التَّعبيرِ بالعِلمِ أنَّه يَشمَلُ ما هوَ ظاهِرٌ، وما هوَ مَكنونٌ؛ فما قَدَّمَت مِنَ الأعمالِ، وما أخَّرَت مِنْ آثارٍ، وتَركٍ، وتَقصيرٍ، كُلُّ ذَلِكَ يُقَيَّدُ في ميزانِ العِلمِ، لا ميزانِ العَينِ.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بالماضي:

التَّحَقُّقُ والتَّقْريرُ في أُسلوبِ الماضي القُرآنيّ

التَّعبيرُ عَن وُقوعِ العِلمِ في قَولِ اللّه تَعالَى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾، بصيغَةِ الماضي مَسْلَكٌ بَلاغيٌّ دَقيقٌ يُرادُ بِهِ إفادَةُ تَحَقُّقِ الوُقوعِ، فإنَّ صيغَةَ الماضي في مِثْلِ هَذا السّياقِ الَّذي اسْتُفْتِحَ بأداةِ الشَّرْطِ (إذا) تُساقُ على سَبيلِ الاستِعراضِ لِمَشاهِدِ القيامَةِ على وجهِ التَّحقيقِ والتَّقريبِ، كَأنَّها وقَعَت، وشوهِدَت، فـ﴿عَلِمَتْ﴾ تُفيدُ أنَّها أدْرَكَت ما فعَلَتهُ مِنْ خَيْرٍ أو شَرٍّ، وما تَرَكَتهُ، أو سَبَّبَتهُ، على وجْهٍ لا مَجالَ فيهِ لِلنِّسْيانِ أوِ الجَهْلِ، كَأنَّ ذَلِكَ العِلْمَ قَدْ ثَبَتَ في قَلبِها، ووَعَتهُ بوُضوحٍ، فلا تَعْذيرَ ولا إنْكارَ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 173.

فالتَّعبيرُ جارٍ على أُسلوبِ تَصويرِ المُستَقبَلِ في صورَةِ الماضي؛ إذا كانَ قَطْعيَّ الوُقوعِ، وذَلِكَ أبلغُ في إثارَةِ الرَّهْبَةِ واستِنفارِ الوَعي، وجاءَ خَتمُ المَطْلَعِ الأوَّلِ لِهَذِهِ السّورَة بالفِعْلِ ﴿عَلِمَتْ﴾ على نَفْسِ الوَزْنِ الزَّمَنيِّ المَذْكورِ في الأفْعالِ السّابِقَة؛ ليَكونَ كُلُّ ما في السّياقِ مُنْسَجِمًا في التَّوْقيتِ والإيقاعِ اللَّفْظيِّ، ويدلّ على أنَّ تِلْكَ الأحْداثَ وما يَتبَعُها مِنَ العِلْمِ هيَ جَميعًا في حُكْمِ الحَوادِثِ المُتَحَقِّقَةِ قَطْعًا.

بَلاغَةُ التَّعبيرِ بالنَّفْس:

إفـادَةُ العُمومِ والشُّمـولِ في الحُكْم، مَعَ التَّوجيهِ والإفرادِ في التَّوْبيخ

التَّعْبيرُ بالنَّفْسِ فاعِلًا في قَولِ اللّه تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾، فيهِ إشارَةٌ بَيانيَّةٌ دَقيقَةٌ، تقْتَضي إفادَةَ التَّعْميمِ في الحُكْمِ على كُلِّ ذاتٍ عاقِلَةٍ، فجاءَ لَفْظُ ﴿نَفْسٌ﴾ مُنَكَّرًا؛ ليَسْتَغْرِقَ كُلَّ نَفْسٍ على انْفِرادِها، بلا تَخْصيصٍ وبلا استِثْناءٍ، فلَوْ قيلَ: (عَلِمَ الإنْسانُ ما قَدَّمَ، وأخَّرَ)؛ لَتَوُهِّمَ أنَّ المُرادَ جِنْسُ الإنْسانِ على سَبيلِ المُجْمَلِ، أو كانَ الخِطابُ موَجَّهًا إلَيْهِ في جُملَتِهِ، أمّا ذِكْرُ ﴿نَفْسٌ﴾؛ فهوَ تَفْريدٌ لِكُلِّ نَفْسٍ على حِدَةٍ، وبذلك تكون المواجَهَةُ أشَدَّ وأعْظَمَ؛ إذْ لا مَلْجَأ لِلنَّفْسِ في الجَماعَةِ، ولا سَترَ لَها بالانْدِساسِ تَحْتَ جِنْسٍ أو تَحْتَ مَعْنًى كُلّيٍّ.

وَمِنْ بَلاغَةِ هذا التَّعبيرِ أنَّ لَفْظَ النَفْس يوَجِّهُ المَعْنَى إلَى الذّاتِ الباطِنَةِ، أيْ: إلَى حَقيقَةِ الإنْسانِ في جَوْهَرِها، وما تَحْمِلُهُ مِنْ نيّاتٍ وأسْرارٍ، لا إلَى جِسْمِهِ أو مَظاهِرِهِ الخارِجيَّةِ، وبِذَلِكَ يَكونُ التَّوْبيخُ أبْلَغَ، والمواجَهَةُ أشَدَّ؛ إذِ النَّفْسُ تَرَى نَفْسَها كَأنَّها المَرْصودَةُ الوَحيدَةُ، فاستُعْمِلَت ﴿نَفْسٌ﴾؛ لِتَدُلَّ على التَّفْريدِ والاستِغْراقِ مَعًا.

غَرَضُ التَّنْكير:

إفـادَةُ التَّعْميمِ والتَّهْويل

تَنْكيرُ لَفْظِ ﴿نَفْسٌ﴾ في قَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾، جاءَ على وجْهٍ بَلاغيٍّ يَقْتَضيهِ السّياقُ؛ لأنَّهُ يُفيدُ التَّعْميمَ والتهويل، فـ﴿نَفْسٌ﴾ مُرادٌ بِهِ العُمومُ على نَحْوِ ما وَرَدَ في قَوْلِهِ تعالى:

﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ١٤﴾ [التكوير: 14]، فكُلُّ الأَنْفُسِ سَتَعْلَمُ يَوْمَ القيامَةِ ذلِكَ، فالتَّنْكيرُ هُنا لِلتَّكْثيرِ والتَّهْويلِ، لَيْسَ لِلتَّقْليلِ، وهوَ مِنْ أساليبِ الفَصاحَةِ في الإنْذارِ والتَّوْبيخِ، فقَدْ جاءَ التَّنْكيرُ في مَقامٍ مَطْلَبُهُ التَّعْميمُ، فلا تُسْتَثْنَى نَفْسٌ، ولا تُخَصُّ نَفْسٌ، فكُلُّ مَنْ يَقَعُ عَلَيْهِ نِداءُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾: هوَ مِمَّنْ تَعْلَمُ نَفْسُهُ ما قَدَّمَت، وأَخَّرَت عِلْمًا لا يَخْتَلِفُ فيهِ، ولا يَغيبُ عَنْهُ.

دَلالَةُ التَّعبيرِ بالمَوصولِ ﴿مَّا﴾:

دَلالَةُ الاستِغْراقِ وشُمولِ الحِساب

اختيارُ المَوْصولِ ﴿مَّا﴾ في قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ يُفيدُ العُمومَ، ومَعناهُ: (عَلِمَت نَفسٌ جَميعَ الَّذي قَدَّمَتهُ مِنْ أعمالٍ، وجَميعَ الَّذي أَخَّرَتهُ مِنْ آثارٍ وتَبِعاتٍ)، فهيَ تَقَعُ على ذَواتِ ما لا يَعقِل، وعلى صِفاتِ مَنْ يَعْقِلُ.

وفي التَّعْبيرِ بها رَوْعَةٌ بَلاغيَّة؛ لأنّها تَحمِلُ مَعنَى الإيجازِ وسَعة المعنى؛ إذ أفادَ لَفْظٌ واحِدٌ مَعَ الفِعْلَيْنِ جَميعَ ما يُحْتَمَلُ مِنْ مَعانٍ مُتَنَوِّعَةٍ، ثُمَّ إنَّ بناءَ ﴿مَّا﴾ يوافِقُ اسْتِعْمالَها المُتَّسِعَ، فإنَّ مَدَّةَ الألِفِ والاتِّساعَ في هَواءِ الفَمِ مُشاكَلَةٌ لاتِّساعِ مَعْناها في الأَجْناسِ[1]، فدَلَّت ﴿مَّا﴾ على كُلِّ ما يَصْدُقُ عَلَيْهِ الاسْمُ مِن خَيْرٍ أو شَرٍّ، وعلى كُلِّ ما يَنْتَسِبُ إلَى العَبْدِ مِنْ فِعْلٍ أو تَرْكٍ أو أَثَرٍ يَجْري على يَدَيْهِ، وبِهَذا الاستِغْراقِ تَكونُ المواجَهَةُ أَشَدَّ وأَبْلَغَ، لأنَّها تُلْزِمُ النَّفْسَ وهَذِهِ بِكُلِّ جُزْئِيَّةٍ مِمّا صَدَرَ عَنْها، دونَ أنْ يَفوتَها شَيْءٌ.

بَلاغَةُ اختيارِ فِعْلِ التَّقديم:

أعْمالُ الإنسانِ حاضِرَةٌ أمامَه، لا تَنْ؛ فَكَّ عَنْه

آثَرَ القُرآنُ الكَريمُ التَّعبيرَ بفِعلِ التَّقديم في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ - دونَ (فَعَلَت) أوْ (عَمِلَت) مَثَلًا - لأنَّه اخْتيارٌ يُشْعِرُ بأنَّ العَمَلَ لا يَزولُ بانقِضاءِ وقْتِهِ، بَلْ هوَ

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/ 131.

مُتَقَدِّمٌ بَيْنَ يَدَيِ العامِلِ يَنْتَظِرُهُ ليواجِهَهُ بِهِ، وفي ذلك تَهْويلٌ وتَهْييجٌ لِلمُحاسَبَةِ الذّاتيَّةِ، فالمَعْنَى العامُّ لِلآيَةِ في ضَوْءِ دِقَّةِ التَّعْبيرِ: (عَلِمَت كُلُّ نَفْسٍ في ذلك اليَوْمِ الرَّهيبِ ما أَسْلَفَتهُ مِنْ أَعْمالٍ، وما تَرَكَتهُ، أَوْ خَلَّفَتهُ وراءَها، عَلِمَتهُ عِلْمَ مُشاهَدَةٍ لا شُبْهَةَ فيهِ ولا نِسْيانَ، فكَأَنَّهُ حاضِرٌ أمامَها، لا فِكاكَ مِنْهُ)، وهذِهِ المَعاني لا تَتَأَتَّى مِنَ التَّعْبيرِ بـ(فَعَلَت) أَوْ (عَمِلَت)، وإنّما يُفيدُهُ فِعْلُ التَّقْديمِ، أنَّ العملَ وإنْ فاتَ زمانُه في الدُّنْيا فهوَ مُتقدِّمٌ لصاحبِه، ينتظرُه في الآخرةِ قد سبَقَهُ إلى مَصيرِه.

بَلاغَةُ الطِّباقِ بَيْنَ التَّقديمِ والتَّأخير:

إفادَةُ الاستِغْراقِ والشُّمول

التَّعْبيرُ بالطِّباقِ بَيْنَ التَّقديمِ والتَّأخيرِ في قَوْلِ اللّه: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ هوَ مِنْ بَلاغَةِ القُرْآنِ في إحاطَةِ المَعاني بأَقَلِّ لَفْظٍ، فإنَّ المُقابَلَةَ بَيْنَ الفِعْلَيْنِ تُفيدُ الاستِغْراقَ والشُّمولَ، كَأَنَّهُ قيلَ: (عَلِمَت نَفْسٌ كُلَّ أعْمالِها مِنْ خَيْرٍ وشَرٍّ، مِمّا بادَرَت بِهِ، ففَعَلَتهُ، أو مِمّا تَرَكَتهُ، فتَرَتَّبَ أثَرُهُ عَلَيْها)، وهَذا الضَّرْبُ مِنَ الطِّباقِ يُسَمَّى طِباقَ الإيجابِ[1]، وإنَّ ما قَدَّمَتهُ النَّفْسُ هوَ ما فعَلَتهُ في حَياتِها مُباشَرَةً، وما أَخَّرَتهُ هوَ ما تَرَكَتهُ، أو خَلَّفَتهُ مِنْ أعْمالٍ جاريَةٍ، أو سيِّئاتٍ سَبَّبَتها، أو خَيْرٍ اسْتَمَرَّ أثَرُهُ بَعْدَ مَوْتِها، فكانَ ذِكْرُ الفِعْلَيْنِ على وجْهِ المُقابَلَةِ بَلاغَةً تُحَقِّقُ الاستِقْراءَ التّامَّ، ممّا يُشْعِرُ بأنَّ الحِسابَ يَوْمَئِذٍ مُحيطٌ بِكُلِّ جُزْئيَّةٍ، لا يَفوتُهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ فِعْلٍ، ولا ما تَأَخَّرَ مِنْ أثَرٍ، فالمَقصودُ مِن ذَلِكَ تَعْميمُ التَّوقيفِ على جَميعِ ما عَمِلَتهُ النَّفْسُ، ومِثْلُهُ قَوْلُهُ تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة: 13][2].

(1) طِباقُ الإيجابِ: هوَ جَمعُ اللَّفْظَيْنِ المُتَضادَّيْنِ في سياقٍ واحِدٍ، ليَتَّسِعَ المَعْنَى ويَبْلُغَ غايَةَ الإحاطَةِ.
(2) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 173.

تَوجيهُ عَدَمِ تَكرارِ (ما):

إيـجـازُ الـقَـول وتَشريك الحُكْم

جاءَ التَّعْبيرُ القُرْآنيُّ بعَدَمِ تَكْرارِ (ما) قَبْلَ فِعْلِ التَّأخيرِ، مِن قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ - مَعَ أنَّ المَقامَ يَقْتَضي تَعْليقَ العِلْمِ بمَوْصولَيْنِ - لأنَّ المَقْصودَ هوَ جَمعُ المَعْنَيَيْنِ في إطارٍ واحِدٍ، فجُعِلَت ﴿مَّا﴾ الأولَى شامِلَةً لِما قَدَّمَتهُ النَّفْسُ مِن أعْمالٍ، ولِما أخَّرَتهُ مِنْ آثارٍ وتَركٍ، ثُمَّ أُضيفَ إلَيْها فِعْلُ التَّأخيرِ بالعَطْفِ، دونَ تَكْرارِ المَوْصولِ؛ لِلدَّلالَةِ على الاشْتِراكِ في الحُكْمِ، وكِفايَةِ ذِكْرِهِ مَرَّةً واحِدَةً، وهَذا مِنْ بَلاغَةِ الإيجازِ؛ إذِ لَيْسَ المَقْصودُ تَعْدادَ الأقْسامِ تَعْدادًا مُسْتَقِلًّا، بَلْ جَمعُها في مَعْنًى مُحيطٍ واحِدٍ، ولَوْ أُعيدَت (ما) قَبْلَ فِعْلِ التَّأخيرِ؛ لَظَهَرَ فيهِ تَفْصيلٌ وتَكْرارٌ، وقَدْ جاءَ المَقامُ يَقْتَضي الإيجازَ مَعَ التَّهْويلِ، فكانَ تَرْكُ الإعادَةِ أبْلَغَ، وفي ذَلِكَ أيْضًا إشْعارٌ بأنَّ ما قَدَّمَتهُ النَّفْسُ وما أخَّرَتهُ كُلُّهُ في حُكْمِ شَيْءٍ واحِدٍ، يُجْمَعُ عَلَيْها، ويُكْتَبُ في صَفْحَتِها، لا فرْقَ في المَسْؤوليَّةِ بَيْنَ ما عَجَّلَتهُ، وما تَرَكَتهُ يَجْري بَعْدَها.

بَلاغَةُ الكِنايَة:

تَـوْسـيـعُ دائِـرَةِ المَسْؤوليَّة

التَّعْبيرُ بقَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ هوَ مِنْ أساليبِ الكِنايَةِ البَليغَةِ، فهيَ كِنايَةٌ عَن صِفَةِ الإحاطَةِ التّامَّةِ بالعَمَلِ، وشُمولِ الحِسابِ للقَديمِ والحَديثِ، أي: كِنايَةٌ عَن شُمولِ العِلمِ ودَوامِ الأثَرِ، فالجُمْلَةُ كِنايَةٌ عَنْ جَميعِ أعْمالِ الإنْسانِ وتَبِعاتِها، مِمّا فعَلَهُ مُباشَرَةً في حَياتِهِ، ومِمّا تَرَكَهُ، فجَرَى أثَرُهُ بَعْدَهُ، فقَولُه: ﴿مَّا قَدَّمَتْ﴾ كِنايَةٌ عنِ الأعمالِ المُباشَرَةِ، ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ كِنايَةٌ عنِ الأثَرِ المُسْتَدامِ مِن خَيْرٍ أو شَرٍّ، كالعِلْمِ الَّذي يَنْتَفِعُ بِهِ النّاسُ، أوِ البِدْعَةِ الَّتي يُقْتَدَى بها، أوِ الظُّلْمِ الَّذي يَسْتَمِرُّ أثَرُهُ، فهيَ كِنايَةٌ تَجْمَعُ الإيجازَ مَعَ الإحاطَةِ بكُلِّ ما يَلْحَقُ الإنْسانَ مِنْ عَمَلٍ أو أثَرٍ، وهيَ أبْلَغُ في التَّهْويلِ؛ لأنَّها تُثيرُ في النَّفْسِ مَعانيَ مُتَعَدِّدَةً، فيَشْتَدُّ الخَوْفُ مِن اتِّساعِ الحِسابِ، وتَشَعُّبِ التَّبِعاتِ.

سِرُّ اختِلافِ التَّعْبيرِ:

إفْـصـاحٌ بالاستِغراق، بَعدَ استِعارَةِ الإخْضار

اختَلَفَ التَّعبيرُ بَينَ قولِ اللهِ تعالى هُنا: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾، وقولِه تعالى في سورَةِ التَّكْوير: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ [التكوير: 14]، مَعَ أنَّ المَقصودَ واحِد، وذَلِكَ أنَّ مِنْ بَلاغَةِ القرآنِ تَخصيصُ كُلِّ سياقٍ بما يُناسِبه، ففي سورَةِ التَّكويرِ كان الحديثُ عن الأهوالِ المُشاهَدة مِن لَدُنِ ابتِداءِ نَفخَةِ الصَّعْقِ، إلى انتهاءِ تلك المَقاماتِ بتَسْعيرِ الجَحيمِ وإزْلافِ الجَنّة، أي: إدناؤُها لِداخِلِها، وجيء بتِلكَ الأخبارِ مَعطوفَةً بالواوِ المُقتَضيةِ لِلجَمع، حَتَّى كَأنَّ تِلكَ المَقاماتِ قَدْ عُبِّرَ عنها بلَفظٍ واحد، وتَحَصَّلَت حاضِرَةً لِلتَّصَوُّرِ الذِّهْنيّ؛ ناسب ذلكَ تقديرُ الأعمالِ المُتَرَتِّبِ عليها الجزاءُ حاضِرَةً، والعبارةُ عنها بما يَحصُل ذلك، فقيل: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ [التكوير: 14]، وكَأنَّهُ قَد قيلَ: (إذا حَضَرت هَذِهِ الأهوالُ مُدرَكَةً لِلعيانِ حَضَرَت أعمالُكم بالتَّذكيرِ لها، ومُطالَعَتِها مَكتوبَةً مَحصورةً في الصُّحُفِ الَّتي لا تُغادِرُ صغيرةً ولا كَبيرة.

أمّا سورَةُ الانفطار؛ فجاءَ التَّعبيرُ فيها بقَولِه تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾، بَعدَ سورَةِ التَّكويرِ لِدَفْعِ تَوَهُّمِ أنَّ مَوضِعَ التَّكْويرِ لَم يُفصِحْ بذِكْرِ أعمالِ الخَلائِق؛ فجاء مَوضِعُ الانفِطارِ بما يُشبِهُ الحَصْرَ لِلأعمالِ مِنَ المُقَدَّمِ والمُؤَخَّر، وبذلك يكونُ التَّرتيبُ القُرآنيُّ لِسوَرِ القرآنِ مُؤَدّيًا لِلْمَعنَى المُراد؛ إذ جاءت سورَةُ الانفِطارِ بَعدَ سورَةِ التَّكوير[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

انفِطارُ السماءِ إعلانٌ عن بدايةِ أحداثِ السّاعةِ الكَونيَّة

الانفطار والانشقاق:

فَطَرَ الشَّيءَ، أي: شَقَّهُ شقًّا، فيه تَفَتُّحٌ وتفَلُّقٌ، يُقالُ: فطَرَ البَيضَةَ؛

(1) الغرناطي، وملاّك التأويل، ص: 504.

إذا فلَقَها من أعلاها، فانفتَحت، ومنه: فِطْرَةُ الإنسانِ، أي: بدايةُ خَلقِه وتكوينه على أصلِه الأوّل؛ لأنّهُ ابتُدِئَ بشَقٍّ من عَدَمٍ إلى وجودٍ[1]، فانفِطارُ السّماء يعني أنّها تشقّقَت، وتفلّقت انفِلاقًا فيه تفرُّقٌ وانصداعٌ، غيرُ مصحوبٍ بضجيجٍ أوِ انهيارٍ عَنيف، بل تَصَدُّعٌ مَهيبٌ يجري بانفتاحٍ مُنَظَّم، يَظهَرُ فيه أثرُ التّدبيرِ الإلهيّ، ولهذا جاءَت في سورةٍ تُظهِرُ أهوالَ الآخرةِ بصورةٍ تأمُّليَّة، يَعقُبُها توبيخٌ للإنسانِ على غُرورِه برَبِّه.

أمّا شَقَّ الشَّيءَ؛ فمعناه: فصَلَهُ تمزيقًا وانهدامًا، وغالبًا ما يَدُلُّ الشقُّ على قوّةٍ وصوتٍ وامتدادٍ في الانفصالِ، يُقالُ: شقَّ الطريقَ، وشقَّ الثوبَ، وكلُّ ذلكَ يوحي بتقطيعٍ مصحوبٍ بعنفٍ وظُهورٍ جَليّ[2]، فانشِقاقُ السّماءُ يعني أنّها تشقَّقت تشقُّقًا ظاهرًا واسعًا يتَضَمَّنُ تهدُّمًا كبيرًا وتصدُّعًا قَويًّا؛ ولهذا جاءَت في سياقٍ يُظهر تجاوُبَ السّماءِ والأرضِ لأمرِ اللّه، كما في قولِه تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾ [الانشقاق: 2]، أي: استجابَت، وطاعَت.

فالانفِطارُ أدلُّ على تصدُّعٍ يصحَبُه تفرُّقٌ وانفراجٌ في البناءِ الكلّيّ، بخلافِ الانشقاقِ الذي قد يدلُّ على فتقٍ متَّصِلٍ، فكأنّ قولَهُ تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ يُصَوِّرُ مَشْهَدًا مَهيبًا لانهدامِ نظامِ السماءِ، بانشقاقِها شقًّا مُريعًا، يُبدِّدُ انتظامَها، ويُخلّ بتماسُكِها؛ إيذانًا ببدايةِ الانقلابِ الكونيِّ الذي يُمهّدُ للبعثِ والجزاءِ؛ وأنَّ الانفطارَ هنا ليسَ مجرَّدَ شَقٍّ، بل هو تفكُّكٌ في بنيَةِ السماءِ يدلُّ على زوالِ قِوامِها، وأنَّه من مَظاهِرِ التبدُّلِ الكونيِّ الذي يُنبِئُ عن دُنوِّ السّاعةِ.

فقولُه: ﴿ٱنفَطَرَتْ﴾ إذًا: (انشقّت، وتصدّعت على وجهٍ يُذهِلُ الأبصارَ، ويَنسِفُ ما كانَ مُستقِرًّا في وهْمِ الإنسانِ من ثباتِ السماءِ ودوامِها)، وهذا المعنى ظاهرٌ في الدلالة السياقيّة للسّورَتَين، فالانفطارُ في سورةِ الانفطار جاءَ بصفةٍ تَمهيديَّةٍ لِبَقيَّةِ الآياتِ، كأنّه تصويرٌ لِمُقدِّماتِ الهَولِ الكَونيّ، الذي تَتبَعُه مشاهدُ البعثِ والحسابِ، فجاء قولُه: ﴿ٱنفَطَرَتْ﴾ ملائمًا لهذا التَّدرُّجِ الرّهيبِ الصّامت، ولذا تتابعَ بعده: انتِثارُ الكواكب، وتفجيرُ البِحار، وبَعْثَرَةُ القُبور.

وأمّا (الانشقاقُ) في سورةِ الانشقاق؛ جاءَ بلَهجَةٍ خاشعةٍ عابدةٍ، فقد وصَفَتِ السّماءَ

(1) الخليل، العين، وابن سيده، المُحكم، والزَّبيديّ، تاجُ العروس: (فطر).
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن سيده، المُحكم، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (شقّ).

بأنّها (أذِنَت لربِّها)، أي: خضعت، وانقادت، فالانشقاقُ هُنا ليس مُجرَّدَ حَدَثٍ كونيٍّ، بل طاعةٌ كونيّةٌ، وكأنّ السّماءَ تُعلِنُ خضوعَها لله بانْشِقاقِها طَواعيَة.

الانتِثارُ والانكِدار:

بَلاغَةُ الانتِثارِ في تَصْويرِ مَشْهَدِ الكَواكِبِ يَومَ القيامَة

الانتِثارُ يأتي من أصلِ الفعلِ: نَثَرَ، يُقالُ: نَثَرْتُ الشّيءَ؛ إذا فرَّقْتَهُ، وفرّقتَ أجزاءَهُ، ومنه: نَثَرَ الدّرَّ، ونَثَرَ الرَّمادَ، أي: بَعْثَرَهُ من تَجَمُّعٍ إلى تَفَرُّقٍ، والنَّثْرُ: رَميُكَ الشيءَ بيَدِكَ متفرِّقًا[1]، فانتَثَرَتِ الكَواكِبُ، أي: تَساقَطَت مُتَفَرِّقَةً مُنْحَلَّةَ النّظام، بَعدَما كانَت مُنتَظِمَةً في مَدارٍ واحدٍ، ففَقَدَت نِظامَها الَّذي كانَ يُظهِر، في بهائها السّماويّ، ولذا فالانتثارُ يدلُّ على تَفَرُّقٍ واضطرابٍ في جِهَةٍ واحدةٍ أو جهاتٍ كثيرةٍ، مع اختلالِ النَّسَقِ وانتقاضِ الرَّبطِ، وهو ملائمٌ تمامًا لسياقِ سورةِ الانفطار، الّتي تصفُ المشهدَ الكَونيَّ بتصويرٍ تَدريجيٍّ من الفوضى والانحلالِ، ليُستكمَلَ بذكرِ البعثِ والحِسابِ.

أمّا الانكِدارُ؛ فهو من أصلِ الفعلِ: كَدِرَ الماءُ أو اللّونُ؛ إذا تغيّرَ صفاؤُهُ، فصارَ مُعْتِمًا[2]، وانكَدَرَ الشّيءُ: أظلَمَ، وتَعَكّرَ، وتَغيَّرَ وجهُهُ، والكُدْرَةُ مِنَ الألوان: ما نَحا نَحْوَ السَّوادِ والغُبْرَة[3]، فانكَدَرَتِ النُّجومُ، أي: زالَ ضياؤُها، واستَحالَ سُقوطُها في ظُلمَةٍ وبَهَتانٍ، وذكر ابن فارس أنّ معنى (كَدَرَ) الكافُ والدّال والرّاء أصلان، يدلُّ أحَدُهما على خِلافِ الصَّفوِ، والآخر على حَرَكَة[4]، وفي ذلك دلالةٌ أخرى على حَرَكَتِها من أفلاكها، وتَزَحْزُحِها عنها، فهي قد خَفَتَ ضَوْؤُها، وانطَمَسَ جَمالُها، وهي تَبَدَّدَت عن أفلاكها، وهَذا مُناسِبٌ لِسياقِ سورةِ التكوير؛ إذ تُصَوِّرُ الكائناتُ

(1) الخليل، العين، وابن سيده، المُحكم، والزَّبيديّ، تاجُ العروس: (فطر).
(2) الخليل، العين: (كدر).
(3) ابن سيده، المُحكم: (كدر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كدر).

الكونيّةُ في خَوْفٍ وذُعْرٍ وقَهْرٍ كونيٍّ عارمٍ؛ يناسبهُ أن تنكدرَ النجومُ إيذانًا بزوالِ عالَمٍ كانَ فيها الضّياءُ والهِدايةُ.

وبذَلِكَ يكون كُلُّ لَفْظٍ قَدْ وُضِعَ في سياقِهِ المُناسِب، فـ﴿ٱنتَثَرَتْ﴾ في سورَةِ الانفِطارِ تُؤَدّي مَعْنَى انحِلالِ نِظامِ الكَواكِبِ وانفِراطِ عِقْدِها، فجاءَت موافِقَةً لِسياقٍ يُريدُ إرخاءَ الهَولِ في نَفْسِ السّامِعِ، وتَفْكيرِه في نِهايَةِ الأمرِ، وتَرْكِ الإنسانِ بَيْنَ مواجَهَةٍ لِنَفْسِهِ ورَبِّه، و﴿ٱنكَدَرَتْ﴾ في سورَةِ التَّكْوِيرِ فيها إشْعارٌ بانْطِماسِ نورِ النُّجوم، وذَهابِ ضيائِها، فالنُّجومُ أو الشُّموس هي مَصادِرُ الطّاقَةِ الكَونيَّةِ، وكَأنَّ هَذا التَّعبيرَ دَلَّ على انطِفاءِ العالَمِ في انهيارٍ تامٍّ، مِمّا يَشْتَدُّ تَأْثيرُهُ على السّامِعِ، الّذي يُصْغي لِتَصَوُّرِ خاتِمَةِ الدُّنْيا بوَجْهٍ مُظْلِمٍ لا مَهْرَبَ فيه.

القُبورُ والأجْداث:

لَيسَتِ القُبورُ كالأجداثِ، وإنِ اشْتَرَكَتا في دلالةِ المَدْفَنِ، فالقرآنُ لا يُكرِّرُ لفظًا لمعنًى يُمكِن أن يُكتَفَى له بمُرادفٍ، بَلْ يُفَرِّقُ بَينَ اللَّفْظَينِ حينَ تَختَلِفُ زَوايا النَّظَرِ، والهَدَفُ التصويريُّ أوِ الإيقاعيُّ أوِ النَّفْسيُّ، فالقافُ والباءُ والرّاءُ أصلٌ يَدُلُّ على غُموضٍ في شَيءٍ وتَطامُنٍ، مِن ذَلِكَ: قَبْرُ المَيِّت، يُقال: قَبَرْتُه أَقْبُرُه[1]، قال اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾﴾ [عبس: 21]، فالقَبرُ: هو اسمٌ للمَوْضِعِ المَعروفِ مِنَ الأرضِ، الذي يُقْبَرُ فيه الإنسانُ، أي: يوارَى في الأرض[2]، وغالِبًا ما يَرِدُ لَفظُ القَبْرِ لاعتبارِهِ مَوضِعًا خارِجيًّا مَحسوسًا؛ ولهذا جاءَ في سورةِ الانفطارِ قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾؛ ليُصَوِّرَ انْكِشافَ ما فيها، وانقِلابَ حالِها ظاهِرًا بَعدَ بَطْنٍ، كما تُبَعْثَرُ التُّرْبَةُ ليُكشفَ ما تحتَها، و﴿بُعْثِرَتْ﴾ فيها مَعنَى القلْبِ والتّفتيتِ والفَضْحِ، فالمَشهَدُ هنا يُظهِرُ أهوالَ البعثِ من جِهَةِ انكشافِ المَستورِ، لا الخروجِ منه فحَسْب.

أمّا الأجْداثُ؛ فمُفْرَدُها الجَدَثُ، والمُرادُ به القَبْرُ، وجَمعُهُ أجْداثٌ[3]، ويُطلَقُ في الاستِعمالِ على أشَدِّها عُمقًا أو خَفاءً، أو يُقالُ: هو أكثر؛ ما يُطلَقُ على ذاتِ القَبرِ في باطنِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قبر).
(2) الخليل، العين: (قبر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جدث).

الأرضِ، وفيه دلالةٌ على مَوْضعِ الدَّفْنِ في باطِنِ الأرضِ، لا على سَطْحِها، ولهذا جاءَ في سورةِ يس: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: 51]، فالسّياقُ هنا يُصوِّرُ لحظةَ الانبِثاقِ المفاجِئَةِ لِلْبَعثِ، خُروجًا سَريعًا من أعماقِ الأرضِ، كأنّهم يَنسَلّون انْسِلالًا خَفيًّا سريعًا، ووردَ في سورةِ القمر كذلك: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾﴾ [القمر: 7]، وهنا التشبيهُ يُقَوّي المعنى الصّوريَّ للكثرةِ والذُّعْرِ والانْبِعاثِ من طيِّ الخفاءِ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والستون،
سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والستون، سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 66 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-45-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 66 : المجلد السادس والستون، سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-45-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6448894 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"